نحو فهم متجدد

الخطاب الغائب

عمر عبيد حسنه

المكتب الإسلامي




منتدى إقراء الثقافي

نحو فهم متجدد

الخطاب الغائب

عمر عبيد حسنه

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

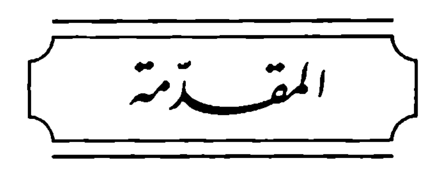
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص. ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص. ب ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص. ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



المقدمة

الحمد لله الذي أخرج الأمة المسلمة للناس من خلال الخطاب القرآني، الذي جعل مهمة البلاغ المبين هي الروح الممتدة، المحركة لعزمات هذه الأمة في كل زمان ومكان، وجعل الاضطلاع بها سبب النجاة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ (الجن:٢١-٢٢)؛ كما أكد أن الإبانة والوضوح في الخطاب والحوار والدعوة (البلاغ) سبيل الصواب والعصمة من الأخطاء، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٧)

والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، الذي أُوتي جوامع الكَلِم، فكان محلاً لخطاب الله الخاتم للإنسانية، وكانت معجزته بيانية بالدرجة الأولى،

وبرهانية وعرفانية كثمرة لهذا البيان البليغ، حيث انحصرت مهمة النبوة في الخطاب المبين، قال تعالى: ﴿ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (المائدة:٩٢)، فكان الخطاب القرآني ومحاكاته على مر العصور سبباً في الترقي اللغوي والبياني وامتلاك وسائل المحاجحة وفنون القول وسبل الإقناع، ولا يزال ذلك منهج الخطاب والبلاغ المطلوب لورثة النبوة، السائرين على طريقها.

وَبَعـْد:

فلقد عرف العلماء الفصاحة بالقدرة على الإبانة والظهور، وعرفوا البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال.. ولعلنا نقول: إن كون معجزة الرسالة الخاتمة تفردت بأنها بلاغية بيانية ومجردة عن حدود الزمان والمكان – دون سائر المعجزات الأخرى، التي غالباً ما جاءت مجسَّدة، مادية، مؤقتة، وملازمة لحياة الأنبياء، وجدت بوجودهم وانقضت بوفاتهم حتى أن الإيمان بها هو ضرب من الإيمان بالغيب– ما يلفت النظر، ويدلل على الخلود.. فالخطاب القرآني معجزة مستمرة لكل إنسان في كل زمان ومكان.

وبذلك ندرك أيضاً لماذا كانت معجزة الرسالة الخاتمة بلاغية إعلامية، حيث إن في التأمل فيما وصل إليه الخطاب الإعلامي، بكل فنونه وأشكاله اليوم، من غلبة وتأثير، إلى درجة يكاد يكون معها القوة السلسة المرنة الناعمة الأكثر فعلاً وفاعلية وقدرة وإقناعاً، ما يعتبر دليلاً على أن ميدان

المدافعة الحضارية، عندما تبلغ الأمم مرحلة النضج، كان ولا يزال هو الميدان الثقافي الإعلامي المعلوماتي الفكري، وأن الحوار الداخلي والحوار مع (الآخر)، وحوار الثقافات، أو حوار الحضارات، أو صراع الحضارات، تبقى أدواته: الثقافة، والإعلام، في المحصلة النهائية، وأن سلاح الإعلام هو الأقوى والأمضى، وأنه هو الذي يمهد السبيل لكل الممارسات والمسالك، ويصنع المسوغ لكل أدوات الصراع أو الحوار الأخرى.

وقد لا نستغرب اليوم إذا عرفنا أن أقوى الدول وأعتاها وأكثرها هيمنة تدرك أهمية الخطاب الإعلامي، في الحرب والسلم، والتعليم والتربية، والحوار الإنساني، وأنها لم تدع استزادة لمستزيد في توفير الأدوات الإعلامية المتنوعة، التي تضخ عالمياً ليل نهار، حاملة رسالتها وفلسفتها إلى العالم، وبكل اللغات، وليس ذلك فقط وإنما تحاول أن تحتوي وتستوعب وتسيطر على الأدوات الإعلامية الخاصة (بالآخر)، ليكون الخطاب الإعلامي اليوم في مستوى المنازلة الحضارية، بلغته وأصواته وألوانه وأشخاصه.

فاللغة هي الأداة الإعلامية الأهم، واللغات في خدمة الخطاب الإعلامي، الذي يبدأ تأثيره مع الإنسان في مراحله الأولى، في التأثر بالأصوات والتعرف على دلالاتها، في التربية والتعليم، ومن ثم التطلع والامتداد لتعلم لغات (الآخر) للترقي في مخاطبته، والتأثير فيه، وقيادته من داخله.

وقد لا نأتي بجديد إذا قلنا: إن الخطاب الإعلامي قد بلغ شأواً بعيداً، حتى أصبح علماً له مقوماته ومواصفاته، بل هو ثمرة لعلوم إنسانية واجتماعية كثيرة، الأمر الذي يؤكد من جديد لماذا كانت معجزة الرسالة الخاتمة التي تخاطب الإنسانية على الزمن، وتحرك عقلها ووعيها ومشاعرها، وتسهم بنضجها، وتتربع على نهاية التاريخ الإنساني، معجزة إعلامية بيانية بلاغية.. فالخطاب يصنع الإنسان، والإنسان يصنع الحضارة.

ومن هنا ندرك أيضاً كيف أن الأمة المسلمة، أمة الفكرة، استطاعت الصمود الاستمرار والتأبي على الفناء رغم عوادي الدهر، وهي الأمة الوحيدة التي تشكلت من خلال كتاب وخطاب بنى لها قناعات، ومكنها من الفهم والتفاهم، وانتهى بها إلى الإيمان بقيم ومثل إنسانية، وأن بناء الإنسان من خلال الخطاب والإقناع يعتبر من أرقى أنواع حرية الاختيار وتكريم الإنسان والاعتراف بإنسانيته، فيما كانت الأمم تتشكل من خلال الأسوار الجغرافية أو البيئية أو القبلية أو اللونية أو الجنسية، أو غيرها من العوامل القسرية التي لا خيار للإنسان فيها؛ وندرك أيضاً أن الفكر، أو الثقافة، يبقى هو العامل الأقوى في المدافعة والمغالبة الحضارية، والحوار الثقافي، وأن مجاهدة الأمة المسلمة تاريخياً تمحورت حول الخطاب القرآني، وانطلقت منه، وعادت إليه، ولذلك كانت المهمة

الأساس للرسول الخاتم البلاغ –كما أسلفنا– وكان الخطاب القرآني هو ميدان الجهاد الكبير والحقيقي: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ...﴾ (الفرقان:٥٢)، وأن خلود المعجزة يعني خلود أداة المجاهدة، والتكليف في استيعابها، والتمكن من أساليبها، والارتقاء بالأداء المبين، وأنه وسيلة المسلم الأمضى في التربية، والتعليم، والإعلام، والحوار، والدعوة... إلخ.

فإذا أضفنا إلى ذلك الطاقات الهائلة التي تمتلكها العربية، لغة التنزيل، بمفرداتها، ودلالاتها، ومجازاتها، وكناياتها، وأساليبها، واستعاراتها، ومترادفاتها، وقابلياتها للتطور والتوليد والاستيعاب، وقدرتها على فتح الآفاق الذهنية ، للماضي والحاضر والمستقبل، والتعبير السلس وتغطية جميع الأحاسيس والمشاعر البشرية، أدركنا أهمية القرآن في معركة الحضارة العالمية، في المجاهدة، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

إن المعركة أو ميدان المجاهدة الثقافية هي من أكبر المعارك التي يتطلب بناء خطابها الكثير من المدارك اللغوية، والعلوم التربوية، والمعارف الاجتماعية والإنسانية والنفسية والعلمية والسياسية، حتى يؤتى أصحابها الحكمة، وفصل الخطاب.. والحكمة، بأبسط مدلولاتها، تعني: وضع الأمور بمواضعها، فلكل مقام مقال، ولكل ميدان مفرداته، ولكل مستوى

خطـــاب: « **مَـــا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إلا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً**» (أخرجه مسلم عن ابن مسعود)، وبذلك لا بد أن ندرك من نخاطب؟ ومتى نخاطب؟ وكيف نخاطب؟ ولماذا نخاطب؟ وندرك كيف نـــتأدب بـــأدب المعرفة ونتوقف عن الخطاب فيما ليس لنا به علم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء:٣٦).

ولعـــل مـــن الحكمة وفصل الخطاب أن ندرك أيضاً أن لكل حالة خطابهـــا ومفـــرداتها ومصـــطلحاتها، ولكل خطاب مواصفاته ومقوماته وشـــروطه، والخلـــط بفهم الحالات المطلوب مخاطبتها يوقعنا بالكثير من الإشـــكاليات والكـــوارث الثقافية والسياسية والدعوية..ذلك أن الخلط والالتباس في مواصفات الخطاب ينتهي بنا إلى نوع من العقم الإعلامي، والمحاصـــرة لقيمـــنا ومبادئـــنا، والشلل لأنشطتنا، والعطب لأجهزتنا في التوصيل والتعامل مع الذات و(الآخر).

فمن المعلوم أن الأمة المسلمة، كسائر الأمم، خضعت للسنن الإلهية، ومـــرت بمراحل متعددة، من هبوط وصعود، واستضعاف وقوة، وهزيمة ونصر، ودعوة ودولة، وحوار ومواجهة، ومعاهدة ونقض عهد، واحتلال واســـتقلال، وحرية واستبداد، حتى أن ذلك يكاد يكون استكمل جميع جوانبه في مرحلة بناء الأنموذج، من قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ في بدء الوحي وحتى قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾، وما بين ذلك مما ورد

من تنـــزيل واجتهادات وممارسات جاء وعاء للحياة بكل صنوفها؛ لأن طبـــيعة الحياة قائمة على المدافعة وعدم الاستقرار والســـكون على حالة واحـــدة، الأمـــر الـــذي يســـتدعي خطاباً واحـــداً، لذلك نجد تنوع مواصفات الخطاب بتنوع الحالات التي عليها الناس.

فالنظرة العامية، التي قد تصل إلى لون من عمى الألوان وعدم التمييز، هي التي تجعل الخطاب يابساً، متحجراً، سكونياً، ذا بعد واحد.

هـــذا مـــن جانـــب، ومن جانب آخر فإن عدم إدراك سنن التغيير والمدافعة الحضارية، وكيفية الاستجابة لها، والإبصار لمواصفات الخطاب، بحســـب الحـــال، سوف يؤدي إلى تنـــزيل خطاب الدعوة على ساحة المعـــركة والإعداد والاستعداد والإغراء بالعدو والحض على الجهاد وبيان مقـــدار ثـــواب الشـــهيد، ويشيع فلسفة الوهن والهزيمة ويوقع بكوارث ومضـــاعفات فكرية واجتماعية، ويلحق بالأمة الهزائم المتتالية؛ كما أن تـــنـــزيل خطـــاب المعركة على ساحة الدعوة نوع من الخبال وتقطيع الأوصال، وإقامة الحواجز النفسية والسدود ووضع العراقيل أمام الدعوة، والحيلولة بين الإسلام والناس، وهكذا سائر الحالات.

وإذا لم ندرك ونفهم مواصفات الخطاب الملائم لكل حال فقد جهلنا دينـــنا، والجـــاهل عدو نفسه، والأحمق من كان عبرة لغيره، والعاقل من اعتبر بغيره.

وقد يكون من المفيد الإتيان على بعض النماذج في هذا المجال:

- **ففي حالة الحرب والتعبئة النفسية والإغراء بالعدو**، نجد الخطاب يأخذ مواصفات خاصة:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾(التوبة:١٢٣)؛

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ ﴾ (الأنفال:٦٥)؛

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ﴾ (محمد:٤)... إلخ.

- **وفي مجال الدعوة**، نجد قوله تعالى:

﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ (آل عمران:١٥٩)؛

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦)؛

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ ﴾ (آل عمران:٦٤)؛

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ (النحل:١٢٥)؛

- **وفي مجال خطاب العهد**، نجد قوله تعالى:

﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ (الممتحنة:٨).

وهكذا... فلكل خطاب مواصفاته، ولكل حالة خطابها، فالخلط في تـــنـــزيل الخطاب على الحال هو الإشكالية اليوم، إضافة إلى ما يترتب

على ذلك من العبث في فهم الأحكام الشرعية المترافقة مع الخطاب، ويؤدي إلى التعسف في التفسير والتأويل وما يقتضي من إعمال النسخ.

إضافة إلى أنه لا بد من التمييز بأن هناك خطاباً محله السلطة المسلمة، من مثل توقيع المعاهدات، وإعلان الجهاد، وإنفاذ الحدود.. إلخ، وأن هناك خطاباً محله الفرد.

ولو اضطرب فهم أو فقه ذلك لاضطربت أحوال الأمة.. فللتربية خطابها، وللحوار خطابه، وللعلم خطابه، وللمعركة خطابها، حتى أصبحنا نجد ذلك واضحاً عند الأمم المتقدمة، فخطاب المعارك الإنتخابية والصراع على الفوز يصل إلى حالات من التعرية لا تبقي فضلاً ولا فضيلة للخصم، فإذا ما انتهت المعركة الانتخابية انتهى الخطاب ليحل معه خطاب من نوع آخر ومواصفات أخرى، وهكذا بحسب ما يتطلب الحال.

والقرآن الكريم منطلقنا إلى بناء خطابنا المعاصر.. كان لخطابه في مكة مواصفات، وفي المدينة كان له مواصفات أخرى تتناسب مع الواقع .. وهكذا، علماً بأن الخطاب القرآني قد استخدم كل فنون وأجناس القول، من القصة، والمثل، والبرهان الكوني، والدليل العقلي، ودفع الإنسان نحو التفكير والاستنتاج والقياس والمقارنة والاستقراء، وخاطب الإنسان عقلاً وعاطفة ومشاعر وأحاسيس وفطرة وتاريخاً ونشأةً ومصيراً.

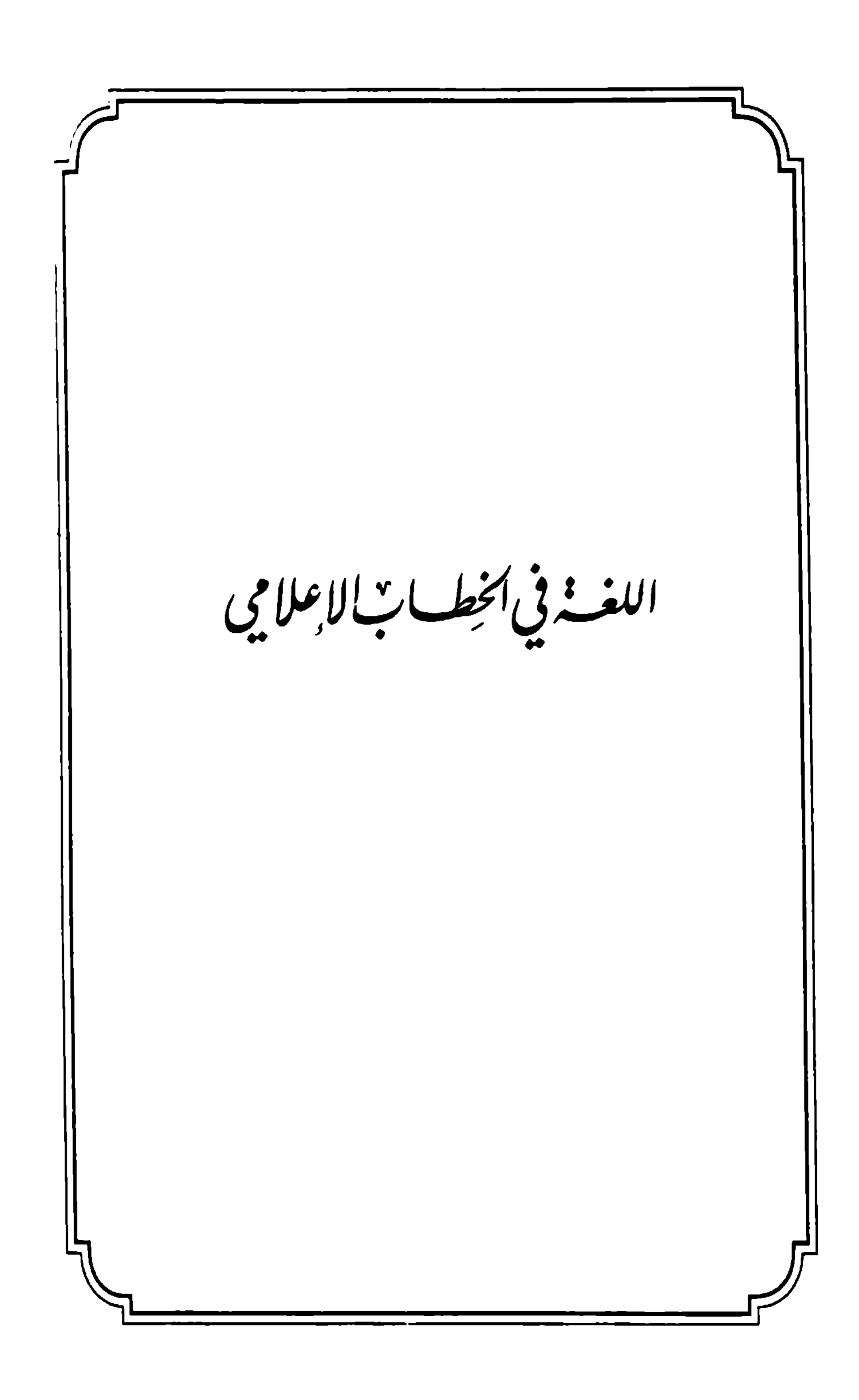
فإذا كان الخطاب القرآني خالداً، فكيف لنا اليوم أن نحقق الخلود في واقعنا، وأن نسترد مواصفات الخطاب الغائب، ونحاكي أساليب القرآن وفنونه في القول، لنجدد خطابنا، ونسترد المواصفات الغائبة، ونعاود إخراج الأمة من جديد، ونمتلك البلاغ الملائم لخطاب (الآخر)، وإلحاق الرحمة به، استجابة لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

وَبَعْـد:

فهذه خواطر، وملحوظات، وأفكار، واجتهادات، قد تكون كتبت في أوقات متباعدة ومناسبات متعددة، إلا أنها ترتبط بوحدة المنهج، وعلاقة النسب والتوحد، وتنضبط بالإطار والمنطلق والمرجعية.

أسأل الله أن يكون ذلك لبنة في طريق استرداد الفاعلية وامتلاك الحكمة وفصل الخطاب، لتأخذ الأمة دورها في الشهود الحضاري، وتحسن الإفادة من وسائل وفنون الإعلام، في ضوء قيمها في الكتاب والسنة، وبذلك تحمي الإنسانية من الفتن والفساد الكبير، استجابة لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (الأنفال:٧٣).

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.



اللغة في الخطاب الإعلامي

جعل الله سبحانه وتعالى معجزة الرسالة الخاتمة الخالدة كتابًا وقرآنًا، وبـــدأ الوحي بقوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾، بحيث تعتبر القراءة والتعلم والتعليم هي مفتاح الدين الجديد، وسبيل الحضارة الإنسانية التي انتهى إليها عطاء الحضـــارات السابقة، وتحققت فيها أصول النبوات جميعًا، من لدن آدم علـــيه السلام، قال الله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ (الشورى:١٣).

والقـــراءة الـــتي أمـــر الله بها في وحيه الخاتم قراءة قاصدة، واضحة الأهـــداف، منضـــبطة المقاصد، إنها قراءة باسم الله الأكرم: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ (العلـــق:٣)، القـــراءة المستصحبة لمنهج الله وأوامره، والمزودة بنعمه وفضله وكرمه في غرس قابلية التعلم والتعليم عند الإنسان، وتلك مـــن أكـــبر النعم الإنسانية التي تقتضي الشكر ووضع النعمة حيث أراد المـــنعم، وبذلـــك وجهـــت الرحلة العلمية ومكتشفاتها وإنتاجها لصالح الإنسان، وضبطت الشاكلة الثقافية بوجهة الخير والصلاح.

وكان مجيء المبعوث في الأميين رسولاً منهم، يتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، إيذاناً بتوقف أميته ﷺ وأمية المؤمنين به عن الاستمرار عند بوابة الدين الجديد، لتبدأ رحلة العلم والتعلم والهداية، وليتوقف الضلال والتضليل الثقافي والسياسي والعقدي لقومه والناس جميعاً.

لذلك يبقى المطلوب دائماً العمل لإعادة بناء الشاكلة الثقافية، أو التشكيل الثقافي المؤصل بالمرجعية الشرعية، والمؤسس على هداية الوحي في تحديد الوجهة، واجتهاد العقل وإعمال الفكر في إبداع الوسائل والبرامج القادرة على تجسيد تلك الشاكلة في مجالات الحياة وأنشطتها جميعًا، لتكون بمثابة الروح السارية في حركة الحياة، والنسغ الضامن لاستمرار العطاء، أو بتعبير آخر: امتداد العمل على الشاكلة التي جاء بها الوحي وبيّنها الشرع، حيث إن العمل والحركة إنما هو في الحقيقة ثمرة لهذه الشاكلة، واستجابة لها، قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ (الإسراء:٨٤).

وهذه الشاكلة التي تتعامل مع الحياة بكل معطياتها وتطوراتها ومتغيراتها وميادينها المتنوعة، لابد أن تكون خاضعة باستمرار للاختبار والتقويم والمراجعة والمثاقفة والمفاكرة والمعايرة، والتطوير في الوسائل، وإعادة النظر، لتكون مؤهلة للتجدد والتجديد واستيعاب المتغيرات، وإبداع الوسائل الملائمة لكيفية التعامل معها.

دور اللغة في التشكيل:

ولعلنا نقول هنا: بأن اللغة هي من أهم أدوات التشكيل الثقافي، بل مـــن أهم عوامل تشكيل الأمم، إن لم نقل أهمها، ذلك أنها وعاء الفكر وأداة التعـــبير والتواصــــل والـــتفاهم بين الناس، توثق صلاتهم، وتقوي روابطهــــم، وتبني ثقافتهم، وتشد وحدة اللحمة بينهم.. وهي مستودع ذخائر الأمة ومخزونها الثقافي وتراثها، الذي يجسر بين حاضرها وماضيها، ويصل حاضرها بمستقبلها، ويحدد قسمات شخصيتها وملامح هويتها.. إنهـــا الوطـــن الـــثقافي الذي يصنع الوجدان، ويحرك التفكير، ويترجم الأحاسيس، ويغير السلوك، ويسهل تبادل المعارف وتلقي العلوم.. وهي المســـبار الحقـــيقي لإدراك أغوار الشخصية وميولها واتجاهاتها، وتحديد أهدافها، فكثيرًا ما يقال: «تكلم حتى أراك».

كمـــا أن كيفية اختيار الألفاظ وأدوات التوصيل والتواصل يؤثر في بـــناء الملكة العقلية والقدرة التفكيرية، حتى يقال عن الحكيم: «لسانه من وراء عقله»، ويقال: «الأسلوب هو الشخص»، كما يقال عن الشخص الخفيف الباهت المهزوز: «فلان يلقي الكلام على عواهنه».

ولا نرى أنفسنا بحاجة إلى التأكيد على علاقة التعبير بالتفكير ودوره في بـــناء العقـــل، وتنظـــيم المحاكمات العقلية وإسعاف العقل، وتزويده بالأوعية المطلوبة لنشاطه، وإغنائه بمجموعة مفردات خصبة ومرنة تحول دون انحـــباس المعـــاني أو ابتسارها، وتمنح العقل الرحابة والانطلاق في

التفكير في فضاء من طلاقة التعبير، لذلك يقال: «من تكلم بلسان قوم فكر بعقلهم».

ونظرًا لأهمية اللغة ورسالتها ودورها، الذي أتينا على طرف منه، نشأت حولها علوم ودراسات متعددة من مثل: علم اللسانيات، وعلم اللغة المقارن، وفقه اللغة، والأجناس الأدبية في النثر والشعر والرواية والمقالة والقصة، وسائر الأجناس الأدبية الأخرى، إضافة إلى النقد الأدبي، الشريك الرئيس في البناء اللغوي الذي تمحور حول الأساليب والمناسبات وطرق الأداء، وعلم القواعد أو النحو، لصون اللغة وحمايتها والامتداد بها بشكل سليم، وعلم الصرف الذي يبحث في أصول اللغة وأوزانها، والاشتقاق والتركيب والمزج والنحت، الذي يكسب اللغة المرونة، ويمكنها من القدرة على الاستجابة للتطورات والمتغيرات الاجتماعية، وعلم القراءات، والتجويد، علم مخارج الحروف...الخ.

ولعل في مقدمة هذه العلوم جميعًا، أو ثمرة هذه العلوم جميعًا، يأتي علم البلاغة بفروعها الثلاثة: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

والبلاغة في أبسط مدلولاتها: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ذلك أنه لكل مقام مقال، أو لكل حال ما يناسبه من الكلام، أو من توفر مواصفات خاصة للخطاب، لذلك فدراسة الحال، بكل مكوناته، واستيعابه، ومن ثم اختيار الألفاظ والأسلوب المناسبين اللذين يحققان الهدف، ليس بالأمر الهيّن.. فإذا لم تراع البلاغة أو مقتضى الحال في

الحديث، فقد تتحول اللغة وسوء اختيار ألفاظها وأسلوبها إلى سبيل فتنة وانتكاس، قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وهو سيد البلغاء: «**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟**» (أخرجه البخاري)، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « **مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إلا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً**» (أخرجه مسلم)، وورد التحذير من سحر القول وزخرفه الذي قد يغيِّب الحقائق ويزيفها، ويقلب الحق باطلاً والباطل حقًا، فقال الرسول ﷺ : «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا** » (أخرجه البخاري)، و«**إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً**» (أخرجه ابن ماجه).

فإذا كانت اللغة بهذه القدرة الخارقة في التأثير والتشكيل الثقافي، أو بناء الشاكلة الثقافية، التي تعتبر الموجه لرؤية الإنسان والمنطلق لحركته وتعامله مع الناس ومواصلته مع تاريخه، أي بناء وجهته في الاتجاهات جميعًا، الماضي والحاضر والمستقبل، كانت العامل الأهم في تشكيل الأمة وتفاهمها وتواصلها، وكانت من القلاع الأولى والحصون الثقافية والاجتماعية والتراثية المستهدفة، ذلك أن استهدافها يعطل نمط تفكير الأمة، ويلغي عقلها ويطمس شخصيتها، ويعبث بثقافتها، ويقطع أوصالها، ويجفف ينابيعها، ويجتث جذورها، ويتركها في مهب الريح، وعلى الأخص عندما تكون اللغة لغة العقيدة والقيم، والثقافة والحضارة، والعلم والتعليم، والعبادة، كاللغة العربية.

استهداف لغة الخطاب:

وقد لا يتسع المجال هنا لاستقصاء الأساليب والأدوات والمكائد والمحاولات المستمرة التي استهدفت العربية -ذلك أن الاستقصاء بطبيعة الحال يكاد يكون مستحيلاً، لتجدد الوسائل والأساليب والمحاولات وتعددها- وإنما هي محاولة لاستقراء بعض النماذج المطروحة على الساحة في هذا المجال، وليس آخرها على كل حال قضية الحداثة، ومحاولتها هدم المعمار اللغوي، وتجاوز بناء الجملة ودلالة المصطلح، وكسر الأوزان الشعرية، والدعوة إلى إلغاء قواعد اللغة بنحوها وصرفها، وإنتاج ذلك الخليط الهجين من المفردات والتراكيب، وتغميض العبارات والألفاظ بضرب من القول والكتابة هو أشبه بالهذيان، الذي يضيع الملامح ويلغي القسمات، ويقيم أنماطًا لغوية وهلوسات عقلية متداخلة، لا طعم لها ولا لون ولا رائحة ولا معنى، وإنما هي نوع من الرسم بالفراغ ومن الفراغ للصور المشوهة الأقرب إلى الذاتية والباطنية، التي تؤدي إلى الانكفاء على الذات أو القراءة بأبجدية خاصة، لا تؤهل لبناء ثقافة أو أمة، ولا تسهم بتفاهم، ولا توثق صلة، ولا تؤدي إلى تواصل أو تبادل معرفي أو فكري، إنما هي هلوسات فكرية -كما أسلفنا- تقذف إلى الضياع، وتؤدي إلى القطيعة المعرفية.

بين الفصحى والعامية:

وليس أقل خطورة أمر المفاضلة، أو محاولة التمييز بين اللغة الفصحى واللغة العامية، أو بين الفصحى واللهجات المحلية، واعتبار العامية هي اللغة الأكثر سلاسة وانسيابًا، والأيسر في التفاهم والتعارف، وأن الفصحى بنحوها وصرفها ومخارج حروفها هي لغة صعبة معقدة في تعلمها وتعليمها، لذلك أصبحت معزولة عن الحياة، محنطة في المعاجم والكتب القديمة، فاقدة للقدرة على الإرسال، لصعوبة تعلمها والإحاطة بها، وفاقدة الأهلية في الاستقبال لعدم الإمكانية على استقبال ألفاظها المتجهمة وإدراك معانيها الغريبة على الأذن، البعيدة التناول، ذلك أن وظيفة اللغة، في نظرهم، تقتصر على تحقيق التوصيل والتفاهم بين المرسل والمتلقي، ومادام هذا التفاهم يتم بسهولة ويسر فلا داعي للتعنت والتنطع والتقعر في اختيار الألفاظ، وإنهاك العقل في المحافظة على بنائها ورصفها، وإثقال الأذن باستئناسها، فاللغة كائن حي ينمو ويشيخ ويموت، فالفصحى في نظرهم أصبحت في عداد الموتى!! فلماذا المحاولات اليائسة لبعثها وإحيائها؟!

وقد تكون الإشكالية الكبيرة في هذه النظرة السطحية والساذجة والمحزنة لقضية اللغة ودورها في التشكيل الثقافي، غياب الإدراك لأثر التعبير في التفكير، ودور اللغة في التواصل مع التراث والتاريخ والعقيدة، ورسالتها في وحدة الأمة وتماسكها واستقرارها وامتدادها، وتحقيقها للتواصل بين

الأجـــيال، واحـــتفاظها بذاكرة الأمة ومخزونها الثقافي، وما إلى ذلك من الأبعاد الكثيرة التي يصعب استقصاؤها والإحاطة بها في هذه العجالة.

ذلـــك أن الاعـــتراف بالعامية وتسيدها هو محاولة مكشوفة لإقامة الحواجـــز بين الأمة وكتابها، مصدر عقيدتها ومعرفتها وفكرها، وتحقيق القطيعة الكاملة مع التراث، والعجز عن فهمه وإدراكه والإفادة منه، لأن العامـــية ستبتعد عن الفصحى شيئًا فشيئًا وستغادرها نهائيًا، وتنشأ فيها عاميات لا تتوقف.

يضـــاف إلى ذلـــك أن موضـــوع العامية سيؤدي إلى سيادة لهجات وعاميات متعددة سوف تقيم حواجز في داخل الأمة، وتمزقها، وتحول دون تفاهمهـــا وتماســـكها، وتقضي على ماضيها، لأن التراث والتاريخ يصبحا منطقة حرامًا بالنسبة للعامية، بحاجة إلى ترجمة، كما أنها تقضي على وحدة الأمـــة، وتمزق حاضرها، وتقيم حواجز نفسية أمام الفصحى، ولا تصلح لأن تكون لغة علم وحضارة، لأنها لغة جهل وأمية ومحاكاة صوتية.

الأمية طريق العامية:

والحقـــيقة الـــتي لا مـــراء فيها، أن الأمية هي طريق انتشار العامية وشـــيوعها وامتدادها، وأن السبيل لمحاصرتها واسترداد هوية الأمة اللغوية والثقافية هو القضاء على الأمية ومحوها، ومحاولة تطوير وسائل وأساليب العربـــية وإشاعتها، والتدريب عليها، وإبراز قدرتها على استيعاب جميع الحالات والتحولات الإنسانية، وامتلاك القدرة على التعبير عنها، وإدراك

وظيفة اللغة ودورها في حياة الأمة، والتواصل لأجيالها، وكونها إحدى القلاع الثقافية.

والذي لا شك فيه أن انتشار العامية لم يأت من فراغ، وإنما امتد في فراغ لم يملأه دعاة الفصحى.. فلماذا انتشرت العامية؟ وهل السبب كله كامن في العامل الخارجي، أم أن القابلية لانتشارها سبقت انتشارها، وهيأت له؟ ذلك أن اللغة الفصحى لسبب أو لآخر انحسرت في زوايا تعليمية معزولة ومعاجم ومجامع لغوية رضيت لنفسها الانزواء والسير خلف المجتمع، وليس أمامه، وأصبح كل همها النظر في بعض المصطلحات والألفاظ المعاصرة لإقرارها، والتفتيش عن مسوغات لغوية لها، أو الاقتصار على توجيه النقد للأخطاء اللغوية بعيدًا عن الإنتاج الإعلامي والثقافي السليم.

أما امتلاك القدرة على استيعاب تطور المجتمعات، وتنوع مجالاتها، وما تستدعي من توليد وتسييد مصطلحات ومفردات وخطاب يشكل أوعية للسانها ومجالاً رحبًا لتفكيرها وإبداعها، فلم يتوفر إلا بالأقدار البسيطة أو الفردية، إذا أحسنا الظن.

وقد لا يسوغ لنا العتب على لغة الإعلام، وقد لحقت الإصابات البالغة بلغة التعليم، معقل العربية وحصنها المنيع، حيث بدأ من عندها الخلل والإصابات البالغة للغة، وأصبح حال اللغة في مجال التعليم،

كمـــا يصورها أحد الحِمْس، الذي قفز إلى المحراب واعظًا، بدون مؤهل، وقال: «ظهر الفساد في البرُ والبحرُ»، فرد أحد الحاضرين: «وفي المحراب».

لقـــد أصـــيبت الفصحى في محرابها، وأدى ذلك إلى انعزالها بشكل طبيعي، فأصبحت دروس العربية تدرس بالعامية، وتحولت دراسة العربية مـــن دراســـة الـــنحو والصرف والبلاغة والقواعد وسلامة الألفاظ إلى الـــتمركز حول الأجناس الأدبية فقط، التي قد تمر في المراحل الدراســـية الـــمتعددة بدون ضوابط لغوية، حتى أن الكثير من أصحاب الشهادات العالـــية أو العلـــيا، من المتخصصين بالأدب العربي، لا يستطيع أن يقيم لسانه ولا قلمه بجملة صحيحة.

ولا بـــد مـــن الاعتراف أن من أسباب الإصابة الذي سمح بامتداد العامـــية والوصـــول إلى حالة الانشطار الثقافي، الذي نعاني منه بسبب الانشـــطار اللغوي، تحوّل الوسائل التي وضعت لحماية العربية والمحافظة علـــيها إلى غايات بحد ذاتها، فكثيرًا ما تتوقف عندها الجهود، دون النظر في دراسة الأحوال وتطوير مواصفات «الخطاب» وطرائق التعليم بحسب ذلـــك الحـــال.. حتى تلك الوسائل لم تتطور دراساتها وأدوات توصيلها والتدريـــب عليها، وإنما بقيت على حالها، على الرغم من تطور التقنيات التربوية والتعليمية، فكادت تتحول إلى معوق وحاجز يحول دون الإقبال عـــلى اللغة، تعلمًا وتعليمًا وتخصصًا، حتى كادت بعض هذه الوسائل أن تنقرض من الساحة التعليمية والتربوية، وتنحسر في بعض الزوايا المعزولة.

إن تحـــوّل الوســـائل إلى غايات، قلب المعادلة التعليمية والتربوية.. فالعـــالم جميعه يقرأ ليتعلم، أما نحن فنتعلم لنقرأ، وقد نفني عمرنا في تعلم كيفية القراءة وضوابطها دون أن يبقى في العمر بقية لنقرأ وننتج.. ونحن هنا لا نقلل من هذه الجهود العظيمة التي حفظت اللغة وحمتها، وحالت دون تميـــيعها وإخراجها عن أصولها باسم تطورها، لكن الذي ندعو إليه أن تـــبقى الجهـــود ضمن المساحات المضبوطة النسب، وأن تتركز على تطويـــر تعـــلمها من جانب، ومن جانب آخر صرف الكثير من الجهود لتحقـــيق الغايـــات والبحث في مواصفات «الخطاب» بحسب المطلوب، لـــيكون قـــادرًا، بما يستخدم من مفردات ومصطلحات وأساليب، على توصيل ما يريد، تعلمًا وتعليمًا وإعلامًا، مرئيًا ومسموعًا ومكتوبًا.

المصطلح ثمرة النضج اللغوي:

ولعـــل مـــن الإشكاليات الكبيرة في إطار اللغة العربية اليوم، تعلمًا وتعلـــيمًا وإعلامًـــا ونموًا وقيامًا بدورها في التشكيل الثقافي، ذي الموارد والمعـــارف المتعددة، هي محاولة النظر إليها والتعامل معها على أنها تفتقر إلى المصطلحات العلمية والمراجع العلمية، التي يحتاجها الدارس والباحث، لذلـــك فهـــي لا تخـــرج عن كونها لغة دين وممارسة عبادة معزولة عن المجالات العلمية، حيث لا مفر لنا اليوم من الإقرار بالازدواج اللغوي بين لغـــة العـــلم ولغة الدين، لغة المعهد ولغة المعبد، بحيث تُخْرَج العربية من المـــدارس والمعـــاهد والجامعات ومراكز البحوث والدراسات والمخابر

والمكتبات وتنزوي في المساجد والمعابد، شأنها في ذلك شأن اللغة السريانية القديمة، التي باتت لا تخرج عن أصوات يرددها الكاهن، وقد يعلمها أو لا يعلمها، لا هو ولا المستمعون.

وفي تقديري أن هذا ليس ذنب اللغة وقدرتها على استيعاب العلوم والفنون وإبداع المصطلحات، وإنما ذنب الأمة المتخاذلة المتخلفة، العاجزة عن الامتداد والنمو العلمي، الأمر الذي انتهى بها إلى العيش على موائد (الآخر)، الذي لابد أن تأكل طعامه، وتستهلك أشياءه، وتتكلم بلسانه، وتفكر بعقله، وتعفي نفسها من المسؤولية، وبذلك تساهم بإخراج لغتها من الحياة، لأن اللغة كائن ينمو مع الأمة، ويتوقف ويتضاءل حال موتها أو سباتها.. ولولا القرآن وكتاتيبه ومراكز تحفيظه ومتابعة تلاوته في العبادات اليومية -وتلاوته عبادة - لخرجت اللغة العربية من الواقع تمامًا.

والحقيقة التي لابد من الإشارة إليها، أن العربية تتميز عن سائر اللغات بأنها ولدت كاملة، كما يقرر الكثير من علماء اللسانيات، وأنها بمفرداتها الزاخرة، ومترادفاتها القادرة على التعبير عن الأحاسيس والحالات الدقيقة والمتجاورة المعاني، وقدرتها على التصريف والاشتقاق، مؤهلة لأن تكون لغة العلم الإنساني بدقائقه وصياغة مصطلحاته.

بل لعلنا نقول: إن عبقرية اللغة تتمثل في قدرتها على احتواء وتحديد التعاريف والمصطلحات المتنوعة في العلوم الإنسانية أكثر بكثير من اللغات الأخرى التي أمكنها التعبير عن المصطلحات والتعاريف والمبتكرات في

العلوم التجريبية، لأنها في النهايـــة لا تخرج عن تسميات ورموز جامدة، بل وحروف ترمز إلى عناصرها.

إن هذا المدخل الخطير في التفريق بين لغة العلم ولغة الدين، كإحدى المحاولات لمحاصرة العربية، وإبعادها عن المدارس والمعاهد والمخابر ومراكز البحوث، وتركها للمعابد والعبادات، والتمييز بين لغة العلم ولغة الدين، سوف يؤدي بالعربية إلى العزلة التامة عن حياة الناس، وعن استعمالاتهم اليومـــية لها، ويسهم بغياب التحدي الذي يستفز الأمة للدفاع عن لغتها طالما هي ما تزال لغة العقيدة والعبادة.

كما ينتج عن هذا التفريق أيضًا أن التكلم بغير العربية يشكل انقطاعًا عـــن المخزون الثقافي والعلوم الأساسية.. وأخطر من ذلك، أنه يقود إلى الـــتفكير بعقـــل من نتكلم بلسانهم، حيث لا تنكر العلاقة بين التفكير والتعبير -كما أسلفنا- ذلك أن الانتهاء إلى (الآخر) في المرجع والكتاب والمـــنهج في عملـــية التعلم والتعليم، هو ارتهان ثقافي يتجاوز الانشطار، وينتهي بالأمة لأن تبقى دائمًا في مقاعد التلاميذ (للآخر).

ولابـــد من الإشارة إلى أن الجهود البسيطة والمحدودة في مجال تعريب العلـــوم ومناهج التعليم والمصطلحات العلمية، واعتماد العربية في تعليم العلـــوم التجريبـــية، دليل على قدرة العربية، وشاهد إدانة للعدول عنها، ذلـــك أن أعداء العربية مايزالون يطاردون ويحاصرون تلك الجهود لحمل الـــدول والمؤسسات والجامعات التي تدرس العلوم بالعربية للعدول عنها واللحاق (بالآخر).

لغة التقنيات المعاصرة:

ولعـــل مـــن الإصـــابات الخطـــيرة أيضًا، التي تتركز حول العربية ومحاصـــرتها، الكـــلام الطويـــل العريض على صعوبة كتابتها، وصعوبة حـــروفها ورسمهـــا وشكلها، وقواعدها ونحوها وصرفها، وأن الوسائل والتقنيات الحديثة جاءت كلها بالحروف اللاتينية، وأن الدخول إلى عالم «الإنترنت» و«الكمبيوتر» والطباعة وتقنياتها يتطلب إبدال الحرف اللاتيني بالعـــربي.. وفعلاً نجحت المؤامرة، وتحولت بعض الشعوب الإسلامية إلى العـــدول عـــن الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني في لغاتها المحلية، فشكل ذلك قطيعة كاملة مع تراثها ومخزونها وتاريخها وصلاتها بالعربية والقرآن، والانـــتهاء إلى (الآخـــر)، باسم الحاجة للتعامل مع التقنيات.. والعجيب الغريب أن ذلك لم ينطبق إلا على العربية.

أما الصينية مثلاً، بكل تشعباتها وتضاريسها، واليابانية بكل تعقيداتها، فلم تعـــان من الإصابة نفسها!! وحتى العبرية، اللغة التي كانت منقرضة، لم تعان مـــن تلـــك الإصابة، لأن وراءها أمة تدرك أهمية اللغة ودورها في التشكيل الثقافي لعقل الأمة ووجدانها وهويتها ومواطنتها وتواصلها وامتدادها.

ولا شك عندنا أن نصيب العربية من الاستهداف كان كثيرًا وكثيرًا جـــدًا، ذلـــك أن العربـــية لغة العقيدة والعبادة والنص السماوي الخالد المعطاء، والتراث التاريخي والمخزون الثقافي، ووعاء ذاكرة الأمة، أو هي ذاكـــرة الأمة وأداتها الرئيسة في التشكيل الثقافي.. فهي لغة الدين، ولغة

العلم، ولغة التربية، ولغة الإعلام والبلاغ لرسالة النبوة، فأية محاولة لزحزحتها عن مواقعها إلغاء للأمة المسلمة، التي لم تتشكل بعوامل جغرافية أو لونية أو جنسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وإنما تشكلت من خلال كتاب، وانطلقت من خلال ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾، فكان كتابها معجزة بيانية تربوية إعلامية، وهي أمة العلم والفكر والقيم.

لغة الخطاب الإعلامي:

إن الارتقاء اللغوي منوط إلى حدٍ بعيد بالتطلع إلى محاكاة أسلوب المعجزة البيانية (القرآن)، وتلمس جوانب الإعجاز البياني الإعلامي فيه، وإدراك تنوع مواصفات خطابه بحسب المقامات والمحال التي يعرض لها.

إن هذا التطلع يمكن أن يمنحنا أقدارًا من إمكان توليد مواصفات لخطابنا تتناسب مع محله ومقامه ومناسبته وأهدافه.. قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ ... ﴾ (الإسراء:٨٩).. لذلك لابد أن نجيب، في العملية الإعلامية وغيرها من المجالات المتعددة، عن السؤال الكبير: «لماذا؟» فنحدد نوايانا ونوضح أهدافنا من العمل الإعلامي أو أي عمل آخر، ومن ثم نصل إلى السؤال: «كيف؟» فنضع الخطط والبرامج، ونحدد الوسائل والأدوات التي تحقق أهدافنا، في ضوء إمكاناتنا والواقع الذي نتعامل معه، ومن ثم تحديد الإجابة عن «متى؟» وذلك لاختيار الزمن المناسب لأداء العمل.

ولا يفوتنا هـــنا أن نذكر أن الإعلام اليوم أصبح مؤسسة تتعامل مع حياة كاملة، بكل ما تعني هذه الكلمة، فهو مؤسسة اقتصادية لا تقتصر على أخبار نقل أسواق المال والأعمال والأسهم والشركات والتجارات والصناعات والمبتكرات، وترصد الأسعار والأسواق، وتقـــوم بالإعلان المغـــري بالاســـتهلاك، وتـــروج للسلع المتنوعة، وإنما تتجاوز ذلك إلى الدراســـات والتحلـــيلات والاستشـــراف المستقبلي، وإقامة الندوات، واستضـــافة الخـــبراء، إلى درجة يمكن معها أن نقول: إن الإعلام أصبح صـــناعة اقتصـــادية ثقيلة، ومدرسة اقتصادية ذات تعليم مستمر، فالذي يملك الإعلام يملك التحكم بالأسواق والإنتاج والثقافة العالية، التي تحول دون المخاطرات المالية وتبصر احتمالات المستقبل.

وكذلك الشأن في المجال الاجتماعي، بكل تفرعاته ومجالاته، وعلومه، ومعلوماته، وأنماطه.

والإعـــلام، أولاً وقبل كل شيء، يعتبر من أهم مؤسسات التشكيل الثقافي، ولا نجافي الحقيقة إن قلنا: بأن جميع مصادر التشكيل الثقافي على تـــنوعها أصـــبحت بحوزة الإعلام، حيث إنه أصبح يغطي كل الجوانب الإنســـانية، ويشـــكل نظرة الإنسان، ويمنحه المعيار الذي ينظر منه إلى الأشياء، بل يدربه على ذلك، ويقدم له النتائج، فهو يقرأ له، ويكتب له، ويـــروي له، ويبيع له، ويشتري له، ويخترق شخصيته القائمة، ويساهم

بصنع شخصيته المستقبلية، إلى درجة أصبح يمكن معها التنبوء بردود الأفعال الممكنة، ووضع الحلول والأوعية المطلوبة لحركتها مسبقًا.

وليس أمر الإعلام كمؤسسة تربوية تعليمية بأقل شأنًا، ذلك أن الإعلام أصبح، بما أتاح من وسائل متنوعة، يغطي قطاعات واسعة وعريضة من المواطنين، باهتماماقم واختصاصاقم وأعمارهم، ابتداءً من عالم الطفولة وانتهاء بحالات الشيخوخة، لذلك فالفاقد للوسيلة الإعلامية أصبح اليوم كالفاقد لحاسة من حواسه، فهو أشبه بالمعاق.

إن هذا الاستحواذ على الناس جميعًا، في مختلف ثقافاقم ومواقعهم وأماكنهم، أمر يصعب تغطيته بوسائل وبرامج التعليم النظامي، سواء من حيث المساحة، أو الوقت، أو الأدوات، أو التقنيات، أو السويات المتنوعة، أو المواد المقررة والوجبات المطلوبة، حيث يقدم الإعلام اليوم الثقافة والتوجيه والترفيه والمعلومة، إضافة إلى أنه يتميز بالاستمرار وتراكم التأثير، والتنوع، والتطوير، والابتكار للوسائل التي لا تتوقف.

فالإعلام تعليم دائم ومستمر، ولكل الأجيال، من الأطفال وبناء خيالهم العلمي، والشيوخ، والذكور والإناث، إضافة إلى امتلاكه، من خلال الوكالات وشبكة المراسلين من مواقع الأحداث، القدرات الخارقة في الحصول على المعلومة، والوصول إلى المتخصص في الأمر المطلوب، وإبداعه للوسائل التعليمية المتميزة، وحسن استخدامها من الصوت واللون والصورة واللغة والظلال والديكور... حيث حول الإعلام

بإمكاناتـــه الهائلة ورحابته ووسائله غرف التعليم التقليدي، بسبورتـــها وأقلامها ومقاعدها وكتابـــها ووسائلها ، إلى ما يشـــبه المعتقلات التي لا يصدق التلميذ متى يخرج منها ليقعد دون إحساس بالزمن إلى التلفزيون أو «الإنترنت» أو «الكمبيوتر».

والذين يحاولون استشراف المستقبل يتوقعون أن يتم الإعداد والاستعداد لتقنـــية الوسائل التعليمية وتأمين الاتصال عن بعد بما يغني عن الذهاب إلى المدرسة، وإنما تأتي بالمدرسة والمدرس والوسائل إليه في مقعده أمامها.

أمـــا الشأن الإعلامي ودوره في السياسة والمغالبة الحضارية، فحدث ولا حـــرج، فالمعلومـــة وتوصيلها باتت اليوم هي السلاح الأكثر فاعلية ومضاءًا، فهي أشبه بالســـلاح الكاتم للصوت.. إنها حقبة المعلومة المرنة، أو حقبة الإعلام.. لقد تحولت الأمم من معلومة السلطة إلى سلطة المعلومة.

فـــإذا كان للمسألة الإعلامية هذه الأبعاد والآفاق والقدرة العجيبة على الاختراق لمجالات الحياة جميعًا، فإنها تتطلب أن تتحول إليها وتصب فـــيها جمـــيع الجهود.. ولا نأتي بجديد إن قلنا: إن الإعلام اليوم هو ثمرة للعلـــوم جميعًا، ليس العلوم الإنسانية والاجتماعية فحسب، بل والعلوم التقنـــية والتجريبـــية.. وهو محصلة لشعب المعرفة جميعًا، من علم اللغة، والاجتماع، والتاريخ، والنفس، والإنسان، والتربية، والتعليم ...إلخ.

إن العلوم جميعًا تتضافر اليوم لإنجاز إعلام مؤثر، فالعالم بعد اختزال الزمان والمكان والمسافات، أصبح دولة إعلامية واحدة، أو قرية إعلامية،

والـــدول الجغرافـــية أصبحت أحياء وحارات في هذه القرية.. ومن هنا ندرك لماذا كانت معجزة الرسالة الخاتمة معجزة إعلامية بيانية مجردة عن ظروف الزمان والمكان.

فالتكلـــيف الشـــرعي -فيما نرى- ليس بأداء العبادات من صلاة وصـــيام وزكـــاة وحج فقط، وإنما الارتـــقاء بوسائلنا النافذة والمؤثرة، لـــتكون بمستوى الإسلام والعصر، لتبلغ الإسلام وتظهره، وبذلك ندخل حلبة المغالبة الحضارية، أو المدافعة الحضارية، والحوار الحضاري، والدعوة إلى كلمة سواء، بأدواتها المناسبة وتخصصاتها المطلوبة.

ولعـــل اللغة تمثل في نهاية المطاف، سواء كانت منطوقـــة أو متكوبة أو مســـموعة، الوعـــاء الإعلامي الأهم، على الرغم من أهمية الوسائل الأخـــرى.. وقد بلغت لغات الإعلام عند الأمم اليوم شأوًا بعيدًا وشأنًا مؤثـــرًا باختـــيار الأصوات الملائمة، والنبرات المؤثرة، والصورالأخاذة، والمصـــطلحات المأنوســـة، والوجه المناسب، والشخصية الملائمة، فلكل وعـــاء إعلامـــي مواصـــفات في التحرير والإخراج والأداء، والصورة والصوت، والديكور، والتقديم، واللباس، وحركات الوجه والحواس، التي تمثل وسائل اتصال غير مسموعة.

وتخضـــع العملـــية الإعلامـــية الجادة دائمًا لعمليات مراجعة وتقويم وتطويـــر، وتجديـــد وتـــنويع، ودراســـة جدوى، وقياس الجدوى، من متخصصـــين في شـــعب المعرفة جميعًا، وتنفق عليها الأموال الطائلة لبناء إمبراطوريتها المعاصرة.

فإذا كانت اللغة عقيمة متكلفة غير مأنوسة وغير ملائـــمة، فلا تنتج ســـوى القـــيم التعبيرية القاصرة والبائسة والمعقدة التي تتحول إلى قبور للمعاني، لا تلبث أن تنقرض وتخلي المكان لغيرها.

لقـــد نجـــح الإعلام، وفي كل يوم يحقق نجاحات إضافية في توظيف التقنية الحديثة في خدمة الثقافة السياسية والاجتماعية والحضارية وتحديث المجـــتمعات، وفق منهجه وأهدافه ورؤيته في التحديث، التي قد تؤدي إلى الاستلاب الحضاري للأمم العاجزة والمتخاذلة.

إن شمولية القضية الإعلامية للمجالات الحياتية جميعًا، إلى جانب نقل الأخـــبار، وترجمـــتها للحياة اليومية، وتسجيلها للتاريخ المعاصر، سوف تكون له نتائج وتداعيات على المستويات كافة.

فـــإذا كانت العملية الإعلامية بهذه الخطورة، وكانت اللغة هي أداتها ووعاؤهـــا، وكانـــت العربية وعاء المعجزة الإعلامية البيانية، فأين دور العربية في وسائل الإعلام اليوم، والوصول إلى الآفاق الحياتية المتعددة؟

إن الوضـــع المحـــزن يتمـــثل في أن اللغة العامية، لغة الجهل، تتقدم، والفصـــحى، لغة العلم والتاريخ والتراث والحضارة، تتراجع إلى المعاجم، وأن أساليب تعليمها باتت لا تشجع بل قد تنفر.. والـــمشكلة الأساس في كيفية الارتقاء بالعربية في وسائل الإعلام، ولا نعني بالارتقاء بها مجرد رصد وإحصاء الأخطاء على الإعلامي ومحاولة تصويبها.

وما أزال أذكر بهذه المناسبة ما سمعته من بعض الباحثين من أن أحد الأدباء الكبار عندما ألقى محاضرة في بلاد المغرب العربي، أحصى عليه طالب من دارسي علوم الآله (علوم اللغة) حوالي سبعة عشر خطأً لغوياً، ومن ثم غاب هذا المحصي و لم يسمع أحد به بعد المحاضرة، وقدم ذلك الأديب الكبير مساهمات أدبية في مجال الأدب الجاهلي والإسلامي والسيرة والمقالة ما نعلمه جميعًا.

إن المجامع وكليات اللغة العربية لا تزال تسير خلف الإعلام، تتعقبه بكسر همزة أو بفتحها، أو بتعريب مصطلح شائع، وتبذل الجهود الكبيرة للإبقاء على الوسائل القديمة لتعليم العربية، وكأن وسائل تعليم العربية وطرقها القديمة مقدسة لا تمس، لذلك فهي تحول دون الارتقاء إلى وسائل معاصرة في تعليم اللغة، أو على الأقل الإفادة من (الآخر)، في ميدان التنافس والمدافعة اللغوية والحضارية، الذي يفرد لكل فن إعلامي وعلمي لغة وأسلوباً ومصطلحات، بل لقد بات يسوق علينا مصطلحاته ومفاهيمه.

مراجعة الخطاب الإعلامي:

وقد يكون من المفيد الإشارة والإشادة بوجهة مجمع اللغة العربية في دمشق، حيث عقد ندوة في تشرين الثاني ١٩٩٨م، تحت عنوان: «اللغة العربية والإعلام»، عرض فيها لواقع اللغة العربية في وسائل الإعلام المتعددة من مكتوبة ومسموعة ومرئية، شارك فيها مجموعة من الخبراء والعلماء، في اللغة، والأكاديميين، وأصحاب التجارب السابقة والإعلاميين.

ولقــد حاولــت الندوة توصيف المشكلة، أو أزمة العربية في وسائل الإعلام، وبحث سبل العلاج، وانتهت إلى مجموعة توصيات يمكن أن تعتبر نقطة انطلاق لمزيد من التفكير، والتنظير، والمثقافة، والمعالمة، إن صح التعبير.

ولا شــك أن محاولة المجمع المرابطة في المواقع اللغوية الفاعلة والمؤثرة يعتبر جهدًا مقدورًا يثير الاقتداء.

ولعــل إلقاء نظرة على بعض عناوين المساهمات المطروحة في الندوة، يمــنح قدرًا من إبصار المشكلة والرؤية التشخيصية لها، الأمر الذي يعتبر أول الطريق للعلاج والتصويب.

ومــن العناوين البارزة في الندوة: الإعلام وتنمية الملكة اللغوية، اللغة العربية والإعلام المرئي والمسموع (مقترحات في سبل العلاج والتنمية)، سلطان العربية في مضمار الإعلام، واقع اللغة العربية في الإعلام المسموع والمــرئي، اللغــة العربية والإعلام المسموع والمرئي، خير الكلام في لغة الإعلام، العربية والقنوات الفضائية، الفصحى ضرورة العصر، دور العربية في مواكبة المصطلح الأجنبي في الإعلام... ونشرت وقائع الندوة وأعمالها في جــزأين من المجلد الرابع والسبعين من مجلة المجمع، تاريخ ربيع الأول ١٤٢٠هـــ (تموز-يوليو-١٩٩٩م) وجمادى الآخرة ١٤٢٠هـــ (تشرين الأول -أكتوبر-١٩٩٩م).

وهذا التوجه ليس جديدًا على مجمع اللغة العربية بدمشق، فقد سبق له أن أصدر مجموعة معاجم في المصطلحات العلمية والطبية، الأمر الذي

ساهم بالمسيرة التعليمية، وعلى الأخص تعليم العلوم التجريبية من طب وهندسة... الخ، باللغة العربية.

كما أقام المجمع ندوة أخرى تصب في الموضوع نفسه تحت عنوان: حول منهجية موحدة لوضع المصطلح.

وبهذه المناسبة لا يفوتنا أن نذكر أن من بوادر اليقظة اللغوية والثقافية والمعرفية أيضا، التوجه صوب المصطلح كخيار لغوي وسمة حضارية، والبحث في منهجية التعامل معه، حيث عقدت ندوة في المغرب، أو دورة علمية تدريبية للباحثين في التراث العربي الإسلامي، قام عليها معهد الدراسات المصطلحية في جامعة سيدي محمد ابن عبد الله الفاسي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، وشاركت فيها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، عرض فيها لمفهوم المنهجية، ومفهوم التراث، ومنهجية خدمة التراث، وتوظيف التراث، وتدريس النص التراثي، ونشرت أعمالها في مؤلف خاص صدر عن معهد الدراسات المصطلحية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي.

لقد بيّن أصحاب الخبرات الطويلة، في البحث اللغوي واللساني وتعليم العربية، أن أفضل طريقة لتعليم اللغة وأيسرها وأقربها إلى مسايرة الطبيعة هو خلق بيئة سماعية، تنطق فيها العربية الفصيحة بمفرداتها وتراكيبها وعباراتها الثرية المضامين والدلالات.. يقول الدكتور إبراهيم

مصطفى وزملاؤه (تحرير النحو العربي، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨م):
إن أفضل طريقة لتعليم اللغة وأيسرها وأقربها إلى مسايرة الطبيعة، هي أن نستمع إليها فنطيل الاستماع، ونحاول التحدث بها فنكثر المحاولة، ونكل إلى موهبة المحاكاة أن تؤدي عملها في تطويع اللغة وتملكها، وتيسير التصرف بها، وتلك سنة الحياة في اكتساب الأطفال لغاتهم من غير معاناة ولا إكراه ولا مشقة، فلو استطعنا أن نصنع هذه البيئة التي تنطلق فيها الألسن بلغة فصيحة صحيحة، نستمعها فتنطبع في نفوسنا، ونحاكيها فتجري بها ألسنتنا، إذاً لملكنا اللغة من أيسر طرقها، ولمهد لنا كل صعب في طريقها.

ونعتقد أنه بإمكان وسائل الإعلام المتنوعة أن تكون معلمة للغة أيضًا، وذلك بإسهامها في إيجاد هذه البيئة السماعية الفصيحة.. وبإمكان هذه البيئة، بيئة السماع والمشاهدة، إذا ما أحسن استثمارها وتوظيفها، أن تجعل اللغة العربية الفصيحة المعاصرة الميسرة السهلة لغة الإعلام، في كل فعالياته ومجالاته وبرامجه.

فالإعلام إذا كان بالمستوى المطلوب، لغة وأداءً، يصبح مدرسة لتعليم اللغة.. ذلك أنه مع استمرار السماع ينضج الأسلوب والطريقة في الذهن، فتتولد المقدرة على المحاكاة، فيبدأ الإنسان في استخدام اللغة السليمة في حاجاته وأغراضه وأفكاره.

وهـذا يعـني أن وسائل الإعلام قادرة على تنمية الملكة اللغوية عند المـتلقي، مما سوف يؤدي إلى الارتقاء بالإعلام نفسه، والتحول من لغة الأمـية والجهل «العامية» إلى لغة العلم والحضارة «الفصحى»، والارتقاء بـالأداء، وبـناء القاعدة اللغوية والثقافية المشتركة، الفصحى، وبذلك يشـكل الإعلام، بكل عطائه، موقعًا مساندًا للعملية التعليمية والتربوية، ولا يتحول إلى وسيلة استلاب ثقافي متقدمة في داخل الأمة وجسرًا لنقل (الآخر) بكل أحماله المقترنة بالكلمة والصورة.

ولابد من الانتباه إلى التعبير بسائر أدواته، فالتعبير بالصورة سبيل إلى التعبير بالكلمة، ذلك أن الجمهور العام يستهلك الصورة الإعلامية أكثر من قدرته على استهلاك معانيها، ومن ثم ينتقل ذهنيًا ولسانيًا من المجسد إلى المجرد.

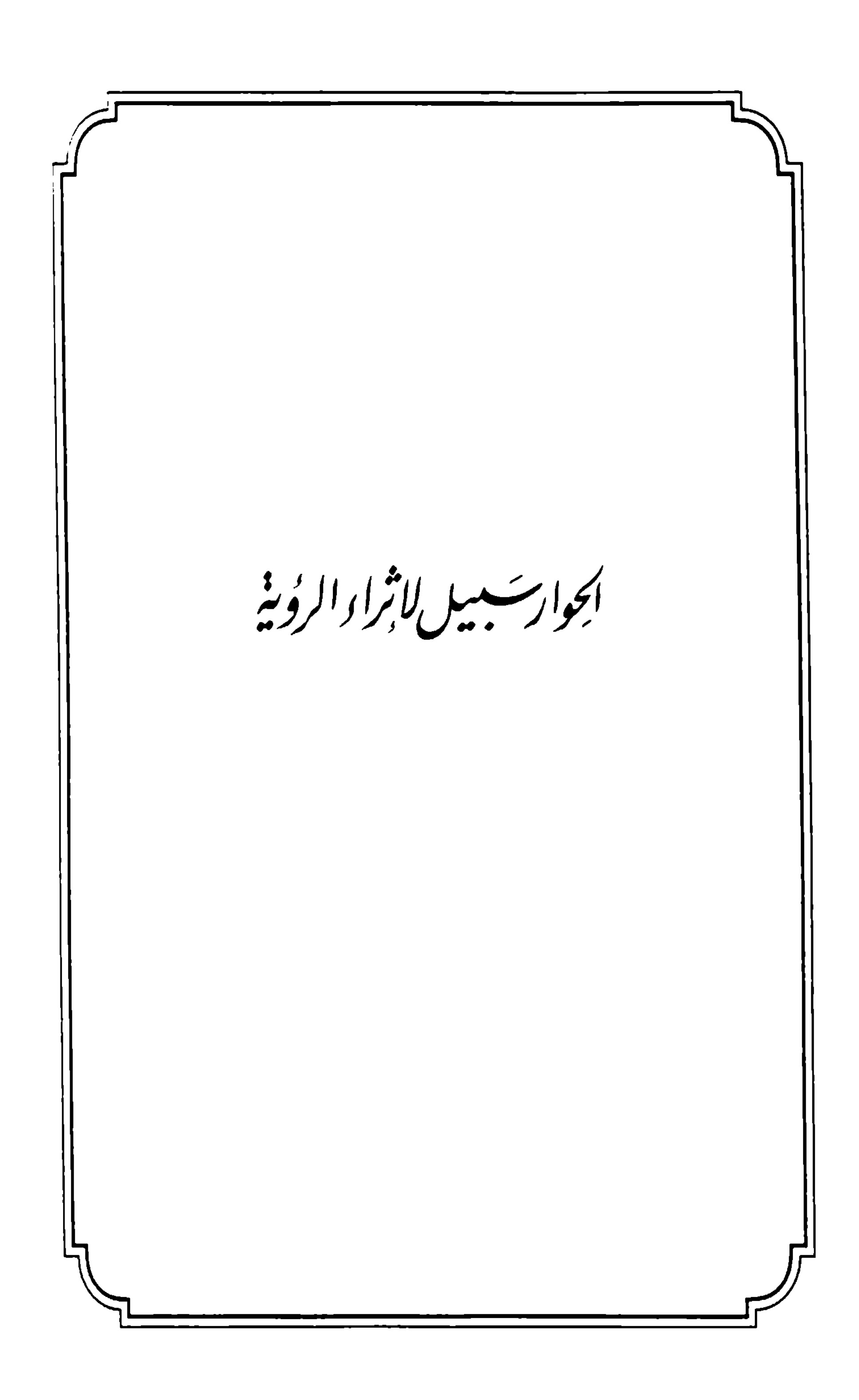
وتبقى الإشكالية الكبيرة -فيما نرى- ليست باحتلال العامية الكثير مـن وسائل الإعلام، أو اللحن بالعربية وإشاعة اللحن في ألسنة وعقول المـتلقين فقـط -ولقد بدأت العامية بالتراجع أمام ارتفاع نسبة التعليم وانحسـار الأمية- وإنما الإشكالية الأساس أيضًا هي في اختيار المفردات اللغويـة، والأسـلوب المناسب، لأنواع الأوعية الإعلامية، من مقروءة ومسموعة ومرئية، ولطبيعة المادة الإعلامية، وفنون التعبير من خبر وتقرير واسـتطلاع ومقابلة وحوار وتعليق ...الخ، وطبيعة المضامين الإعلامية، حيث يمتد الإعلام اليوم ليغطي جميع جوانب الحياة والمساحات الإنسانية.

فهـــناك الإعلام السياسي، والإعلام الاقتصادي، والإعلام الرياضي، والإعـــلام الـــثقافي، والإعلام الأدبي، والإعلام العلمي والطبي، والإعلام الاجتماعي... الخ، ولكلٍ من هذه الأجناس الإعلامية خصائصه ومتطلباته المعرفـــية، ومفـــرداته، ومصطلحاته اللغوية والعلمية، وأساليبه المؤثرة، التي تجمع بين مواصفات الخطاب العام والخطاب النوعي في آن واحد.

واللغـــة العربـــية، بما تمتلك من الإمكان والتنوع، والمترادفات، التي تشـــترك في معنى واحد، وتتمايز في الوقت نفسه لاختصاص كل مفردة بمعـــان خاصـــة بها، تلك الخصوصيات التي قد تغيب في مراحل العجز والتخلف اللغوي فلا تدرك الفروق اللغوية، مؤهلة لتغطية هذه المساحات جميعًا.. ولو كنا في مستوى لغتنا وتقنيات عصرنا، لاستشعرنا بالواجب نحو اكتشاف آفاق للامتداد بثقافتنا وعقيدتنا ورؤيتنا الحضارية.

فالإشكالية ليست في استعمـــال العامية وفشـــو اللحن اللغوي فقط - كمـــا أســـلفنا - لأن هـــذا أمر قد يكون بسيط المعالجة، وإنما تلك الإشـــكالية المركـــبة ذات أبعـــاد أخرى، لابد أن تتوفر عليها مجموعة اختصاصـــات معرفـــية -واللغويـــة في مقدمتها - للنظر فيها، وتطوير الأدوات لتـــتوازى مـــع تطور الإعلام، وبذلك يكون الإعلامي معلّمًا ومعلَّمًا في الوقت نفسه.

والله الموفق.



الحوار سبيل لإثراء الرؤية

خلــق الله سبحانه وتعالى الإنسان وعلمه البيان، وأمكنه بهذا التأهيل والتعليم من الإفصاح عما في نفسه، والتفاهم مع من حوله، كما أمكنه من فهم (الآخر) ورؤيته، وأبصره بكيفية التعامل معه، وأقدره بهذا التعليم أيضاً امــتلاك الإمكانية على الحوار والتواصـــل مع محيطه، حيث اللغة مفــتاح البـــيان، وأداة تحقيق هذا التواصل، وتجسيد هذا البيان، ووسيلة الاتصـــال الرئيســة، لذلك فمهما تنوعت وتعددت أدوات ووســائل الاتصـــال فهي لا تخرج عن ارتكازها على اللغـــة (واللغة شيء وعلوم اللغة أمر آخر).

واللغـــة بما تمتلك من مخزون معنوي ووظيفة اجتماعية وتربوية وتأثير نفســـي، بمقدرتهـــا الاستبطانية، هي الركيزة الأساس في الحوار والتفاهم والتعارف والتعاون والتواصل الإنساني بكل أجناسها وأساليبها، من دعوة ومناظرة ومناقشة ومثاقفة ومفاكرة ومراجعة ومجادلة... إلخ.

وإذا كانـــت العلـــة والهدف من تنوع الخلق هو التعارف والتعايش والتفاهم تحقيقاً لسنة الله في التدافع والتكاثر والتنامي، الذي لا يمكن أن

يكـــون إلا بالتنوع، فإن الحوار بأشكاله ومسمياته ومصطلحاته المتعددة يصـــبح من لوازم الحياة وضمان استمرارها وإقامة العمران والاضطلاع بأعـــباء الاســـتخلاف البشـــري، الذي يقتضي الاضطلاع به التعارف والتعاون والتعايش والتدافع.

ومـــن هـــنا كان رسول الرسالة الخاتمة إماماً في الفصاحة والبيان، أُوتـــــي جوامــــع الكلم، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٤٤) وضُمنت رسالته مســـيرة النـــبوة، بكـــل ما حفلت به من ألوان الحوار وأساليبه وأنواعه ومشـــاهده، منذ بدء الخليقة، حيث حوار الله سبحانه وتعالى مع الملائكة حول خلق آدم عليه السلام، وحواره جلّ وعلا مع آدم وزوجه، وحواره تعالى مع الشيطان، وحوار الأنبياء مع رب العالمين، وحوارهم مع أقوامهم في بيـــئات مخـــتلفة وأزمــــان مختلفة وأساليب متنوعة، الأمر الذي يشكل لأصـــحاب الرســـالة الخاتمة مشهداً حوارياً متكاملاً لكل أساليب الحوار وموضــــوعاته، على مستوى الذات و(الآخر)، والذي يمكن أن يعتبر إغناءً وإثراءً، وميادين تدريب وأدلة عمـــل ومشروعات حوار نضيجــــة تاريخياً للسائرين على درب النبوة.

لذلك، يبقى الحوار الأداة الأساس في أي محاولة لإعادة بناء وتصويب رؤية النخبة وإثرائها، والمساهمة في إخراج الطائفة القائمة على الحق، التي

تحقق خلود القيم الإسلامية وقدرتها على الإنتاج في كل الظروف والأحوال، التي تتمثل الإسلام في حياتها وعلاقاتها، وتشكل الخميرة للتجدد والنهوض الحضاري، ذلك أن النهوض الحضاري لا يتحقق - فيما نرى- إلا بتفكير نخبة وإنجاز أمة، حيث نتصور أن الأزمة في حياتنا الحضارية هي أزمة نخبة وليست أزمة أمة، ذلك أن الأمة برهنت في كل الظروف انتصارها للإسلام وانحيازها لقيمه، على الرغم من خيبة أملها وإحباطاتها المستمرة في من يُطلق عليهم مصطلح: «النخبة» الذين يرفعون شعارات الإسلام، ويعجزون عن تقديم الرؤية المستقبلية الواضحة والأوعية الشرعية لحركة الأمة في محاولتها للعودة للإسلام والاستجابة لشعاراته والانضباط بقيمه، بل لعلنا نقول أكثر من ذلك من: إن الأمة المسلمة اليوم تمر بمرحلة التشرذم والتقطع في الأرض: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف:١٦٨)، والتبعثر والانفجارات الاجتماعية بسبب من الحيرة والارتباك وغبش الرؤية والتباس الأمور وكثرة الرايات العُمِّيَّة، وتحول الكثير من مؤسسات العمل الإسلامي، التي يفترض فيها الريادة للأمة، إلى أجسام غريبة منفصلة عن جسم الأمة أو إلى طوائف قد تصير إلى الانغلاق بسبب افتتانها بنفسها وفكرها وظنها أنها دون غيرها تمتلك حق اليقين.

وأعـــتقد أن الكثير من عمليات الاستفتاء واستطلاعات الرأي في العالم الإسلامي، على المستوى الثقافي والسياسي، على حد سواء، لا تعتبر مؤشراً دقيقاً على قيمة الأشخاص، ولا دليلاً على قدراتهم، ونضوج برامجهم، بقدر مـــا هي انحياز لقيم الإسلام وشعاراته التي يرفعونها بالدرجة الأولى، ورفضاً للمبادئ والقيم الخارجة عن الإسلام وحملتها، كائنين من كانوا.

ومـــا لم نبصر أنفسنا بدقة، ونعترف بأمراضنا بصراحة، وننتقد أداءنا بصدق، ونتفاكر ونتشاور، ونقوم بعملية تحاور (مراجعة شاملة) من خلال عيون خبيرة فاحصة وعقول متخصصة ونوايا مخلصة، وننتهي بهذه المراجعة إلى إنضـــاج الـــرؤية الـــتي تتوفر على الأهداف الواضحة والاستطاعات الممكـــنة، والظـــروف المحيطة، ومن ثم ممارسة عملية الحوار مع الذات في ضـــوئها، حتى تصبح ثقافة شائعة في الأمة، قبل الحوار مع (الآخر) لتوسيع دائـــرة الـــرؤية والتفاهم حتى تشمل الأمة وتزيل الحواجز من بينها وتحقق القـــاعدة الثقافـــية المشتركة لاستيعاب الواقع وإبصار المستقبل واستشعار المســـؤولية، كـــلٌ في الـــثغر الذي يقف أمامه، فسوف تستمر رحلة التيه والضياع والعجز عن الحوار مع (الآخر)، ويمكن أن أقول: رحلة الضلال، بالمعنى اللغوي، الذي يعني الضياع عن بلوغ الهدف.

إن حالة التأزم، وفكر التأزم والتعصب والتمذهب والتقليد والانغلاق والحجـــر على العقل وازدياد الطائفيات، يستدعي المراجعة وإعادة النظر

ووضع الخطط والبرامج لكيفية عودة الأمة إلى ذاتها، وحوارها مع ذاتها. وإعادة مد الجسور بين أوصالها ورؤاها المبعثرة.

حوار لا مواجهة:

والحقيقة التي تؤكدها النبوة على تاريخها الطويل، ويدلل عليها الواقع، ويثبتها التاريخ البشري، أن الحوار بألوانه المتعددة: البرهان والعرفان والبيان والمناقشة والتشاور والتفاكر والمثاقفة والمجادلة بالتي هي أحسن، هي طريق الوصول إلى الإنسان، وهي وسيلة النبوة، كل النبوة، من لدن آدم عليه السلام.

ذلك أن النبوة قرآنٌ وبرهانٌ وبيانٌ قبل أن تكون سلطاناً، وأمةٌ وفكرةٌ قبل وبعد أن تكون دولة وسلطةً.

بل لعلنا نقول: إن المواجهة والعنف والصراع لم تشرع إلا لحماية الحوار وتأمين أجوائه وفتح قنواته، ذلك أن الإنسان لا يقاد إلا من خلال قناعاته، حيث التدين أرقى أنواع الحرية والاختيار وتحقيق كرامة الإنسان.. ويمكن القول بأن: النبوات جميعاً اقتصرت على الحوار والدعوة، وتحملت في سبيل ذلك كل أنواع الأذى والإساءة والدفع بالتي هي أحسن، وفي تاريخ النبوة لا نجد سوى نبوة داود وسليمان عليهما السلام والنبوة الخاتمة جمعت بين النبوة والحكم، بين السلطان والقرآن، بين الدولة والأمة، وشرعت الجهاد والمواجهة بضوابطها الشرعية وفي

أضيق الحدود لحماية الدعوة وإزالة المعوقات وفتح الانسداد في أقنية الحوار، ولهذا مغزاه الكبير، ذلك أن المواجهة العُمِّيَّة والظن بأنها تعبِّد الإنسان هي عودةٌ إلى حياة الغاب، وارتكاسٌ بصفات وخصائص الإنسان، وردة نحو البهيمية.. حتى في عالم الغرائز (الحيوان) اليوم أصبح من الممكن ممارسة عمليات الاستئناس والتأليف حتى للحيوانات المفترسة وذلك بعد ترويضها من قبل الإنسان.

إضافة إلى أنه حتى النبوات التي حلت معادلة تلازم الألوهية والحكم ونزعت صفة الألوهية عن الحكام، وسوت الناس أمام الخالق، إنما كان انتشارها بالحوار لا المواجهة، ولو كانت المواجهة هي السبيل لانتصر أصحاب السيف وهُزم أصحاب القيم.. والتاريخ ينبئنا بغير ذلك.. وهذه المعادلة الحضارية يمكن أن تعتبر سنة ماضية إلى يوم القيامة.. والعبرة بالعواقب البعيدة وليس بالنتائج القريبة التي قد توهم بغير ذلك، علماً بأن النتائج القريبة التي قد لا تتجاوز متوسط عمر الإنسان قد تؤكد هذه السنة أيضاً.

ولا أدل على ذلك من التاريخ القريب والبعيد، من أنه بمجرد أن تتاح فرصة ولو محدودة، أو هامش ولو بسيط، للحرية في بعض بلاد العالم الإسلامي، تأتي كل المؤشرات والنتائج والمبشرات في صالح الإسلام والمسلمين، ابتداءً من الانتخابات النقابية وانتهاءً باستفتاءات الدولة والحكومة.

لقــد أدرك خصـــوم الإسلام ذلك تماماً، ولعل إدراكهم هذا تجاوز إدراك بعــض البســطاء من المسلمين، حيث تيقنوا أن الإسلام هو خيار الأمــة، بضـــرب النظر عمن يمثله، وأن الحرية والحوار هو المناخ السليم لامـــتداد الإسلام وانتشاره واختياره، لذلك حولوا الكثير من دول العالم الإســـلامي إلى مخافر، وعسكروا معظم الأنظمة، بعد نجاحهم في إسقاط الخلافـــة، وأجهدوا أنفسهم بوضع فلسفات ومسوغات للتدليل على أن الأمة متخلفة، وغير مؤهلة للحوار والديمقراطية، وغير قادرة على التعامل مع أجواء الحرية، وهي بحاجة إلى الوعي الديمقراطي الحواري، وانتهوا إلى أكذوبة كبرى هي أنه لا بد من حماية الديمقراطية من الديمقراطية، وحماية الحوار من الحوار(!) فكانت أنظمة الاستبداد السياسي.

والشيء المحزن حقاً وقوع بعض جماعات وتنظيمات العمل الإسلامي في الشـــرك، والـــتوهم بأن المواجهة هي السبيل، الذي يختصر المسافة، ويـــرغم العدو، ويحقق النصرة، ويستدلون على ذلك بمواجهة خصومنا وأعدائنا وانتصارهم علينا، دون أن يدركوا أننا الرابحون في أجواء الحرية والديمقراطـــية والحـــوار، بمـــا نمتلك من قيم إنسانية، وأننا الخاسرون في المواجهـــة والصـــراع.. إضافة إلى أن المواجهة لم تأت بخير تاريخياً، وأن خصومنا وأعداءنا في غالب الأحوال هم الرابحون في المواجهة، الخاسرون في الحـــوار والحرية والديمقراطية، لذلك ما عليهم إلا استفزازنا وإغضابنا وجرنا للمواجهة، لتكريس غلبتهم والقضاء علينا.

وهذا الأمر الذي نطرحه، بين الحـــوار والمـــواجهة، ليس جـــديداً، أو بسبب الظروف المحيطة أو الشعارات والأفكار المطروحة على المنطقة الإسلامية للمناقشة، ســـواء على المســـتوى الســـياسي أو الإعـــلامي أو التعليمي، كما أن هذا الطرح لأهمية الحوار والحرية والشورى ليس رد فعـــل على الإخفاقات الكبيرة للمواجهة في الواقع الإسلامي، وإن كان تحليلاً واستقراءً لها، كما أنه ليس تراجعاً إلى مواقع الفكر الدفاعي، الذي اجـــتاح المنطقة الإسلامية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حيث أصبحت كل الكتابات والندوات والمحاضرات والأنشطة الثقافية والإعلامية تـــتمحور حول الدفاع عن الإسلام من الشبهات التي يقذفنا بها خصومنا وبذلـــك يـــتحكمون من خلالها بمجالنا الفكري وأنشطتنا الثقافية، ويبقى إنتاجنا استهلاكياً بدل أن يكون تنموياً إنتاجياً نبصر من خلاله مشكلاتنا الحقيقـــية، ونجدول أولوياتنا، ونبادر بطرح قيمنا بتخير الجو الملائم والحال المناســـب، فالبلاغ والبلاغة في أبسط تعريفاتها هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإذا غلب علينا سوء التقدير أصبحنا نخبط خبط عشواء.

وهذا لا يعني أن نتجاهل الواقع ونحاول القفز من فوقه وعدم التعامل معه، وإنما يعني التنبه إلى أهمية ضبط النسب، والمدافعة بالأقدار المطلوبة، شريطة أن لا تأتي استجابة لتحكم خصومنا بمجالات تفكيرنا وساحات أنشطتنا الفكرية.

آفاق الحوار ومتطلباته:

ولا شك أن مجالات الحوار وآفاقها تتسع لكل استطاعة، وتتوفر في كل حين، وتستوعب كل موضوع، وتتطلب أكثر من أسلوب، لتحقيق التطلعات والأهداف، ابتداءً من الحوار مع النفس، ومراجعة الفعل والسلوك، واختبار القناعات، والتأمل في الأفكار الذاتية، وما ينتج عن ذلك من التوبة الفكرية والسلوكية: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ (القيامة:١٤-١٥)، والانطلاق في هذه الرحلة الداخلية من منطلق الإدانة: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف:٥٣)، ذلك أن مطالب النفس دائماً بحاجة للمراجعة، فـ«**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**» (أخرجه الترمذي، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ)؛ مروراً بالامتداد بالحوار إلى الأسرة المحضن الأساس، بكل مكوناتها: الزوج والزوجة والأولاد والأرحام، والجوار، والجماعة، والنادي، والمدرسة، والجامعة، والمجتمع، والتعليم بشكل أخص، وانتهاءً بالحوار مع (الآخر)، ذلك أن التعايش، والتعارف، والتكامل، والتفاهم، وإزالة الحواجز النفسية، وبناء الشخصية، واكتشاف الميول، ومعرفة المؤهلات، والتعرف على المداخل الحقيقية للوصول إلى (الآخر) والتفاهم معه... هذا التفاهم هو الذي ينتج القوانين والأعراف ووسائل الضبط الاجتماعي، ويحرر الحقيقة العلمية، ويؤدي

إلى التراكم المعرفي وتبادل الخبرات وترسيخ الأعراف وبلورة القيم الخلقية واكتشاف وسائل التنمية المستدامة.

- اللغة:

ولعل من أهم أدوات الحوار اللغة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ...﴾ (إبراهيم:٤) فاللغة بكل صيغها وأساليبها ومبانيها ومعانيها تشكل وعاء الحوار، ووسيلته لتوصيل الرسالة المطلوب توصيلها.

لذلك يعتبر من الشروط الأساس للحوار التمكن من اللغة الأم في الحوار مع الذات، وإدراك وظائفها الاجتماعية وأبعادها النفسية والتربوية، والتنبه إلى تأثير الكلمة وسحرها ومفعولها، واختبار الاستجابة، وتنويع الأسلوب، واختيار المفردات والمصطلحات، والتحقق بالإبانة، والتمكن من لغة (الآخر) في الحوار معه، والإحاطة بمعرفته، وذلك بالإدراك الكامل لخلفيته الفكرية وقيمه وتاريخه وحاضره.

- الإحاطة (بالآخر):

إن الإحاطة (بالآخر) هي التي تؤهلنا للحوار معه، ذلك أن خلفيته الفكرية هي التي تشكل ذاكرته وتصوغ شاكلته الثقافية، وتاريخه يبين لنا مدى تمكن هذ الخلفية من سلوكه واستجاباته، وواقعه الذي يمثل مستقبل تاريخه هو الذي يبصرنا بمشكلاته وكيفية التعامل معه.

- الاعتراف (بالآخر):

وهنا قضية نعتقد أنها على غاية من الأهمية، وهي أن ننطلق في الحوار من معرفتنا (بالآخر) بكل مكوناته – كما أسلفنا- والتعامل معه من خلال ذلك وليس من خلال ما نريد ونتمنى، ولا يمكن أن يكون الحوار مع عدم الاعتراف (بالآخر)؛ وذلك أن الاعتراف به وبخياره ووجوده كواقع شيء، وإقراره على ما هو عليه شيء آخر.

ولقد اعترف الرسول القدوة ﷺ (بالآخر) ؛ لأنه محل الدعوة، وخاطبه، وكاتبه، وراسله، وطلب من الأصحاب تعلم لغته، وكان ينتقي السفارات المؤهلة للقيام بتلك المهمة الدقيقة، بل لقد توصل بنتيجة التفاوض والحوار إلى معاهدات ووثائق وبناء نقاط مشتركة، وما وثيقة المدينة مع يهود بطوائفهم جميعاً، وما صلح الحديبية مع المشركين، وما المعاهدات الأخرى، إلاّ اعتراف بهذا الواقع وعدم إلغائه ونفيه وإقصائه، ولم يقتصر الأمر على الاعتراف وإنما تجاوز إلى مد جسور الحوار أيضاً.

هذا إضافة إلى أن المتأمل في القرآن الكريم والبيان النبوي، الذي يعتبر الدليل والهادي إلى أفضل السبل في الحوار والتعامل مع (الآخر)، لا يلبث أن يبصر الاعتراف (بالآخر) وبيان عقائده وسلوكه وواقعه ومناقشته والحوار معه، من خلال عقيدته نفسها، ودعوته إلى صيغ عقائدية

مشتركة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤).

هذه الدعوة إلى أهل الكتاب، تضمنت الانطلاق من مستوى واحد للبحث عن الحقيقة والإيمان بها، والارتكاز في الحوار إلى النقاط المشتركة الـتي تشكل أرضية للحوار، ومحاور للتفاهم، للوصول إلى مستوى بناء المشـترك الإنسـاني أو الإيماني، وإن لم يتحقق ذلك فلا أمل من المهادنة وتحقيق حرية الاختيار والاعتقاد: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ (الكافرون:٦).

- التحليل والتخطيط والتنزيل:

ولعـل الإشـكالية الـيوم أن الكثير من باحثينا وعلمائنا وخطبائنا ومفكريـنا يسهبون في الحديث عن أهمية الحوار، وشروطه، ومقوماته، ومدلـولات المصطلح اللغوية، ويعرضون للحوار وما بلغه من عطاء في الكـتاب والسنة، لكن تبقى الفجوة الخطيرة، التي لم تجسر بعد بالشكل المطلـوب بـين واقع الأمة وقيمها، أن الحديث يقتصر على التقرير دون التجاوز إلى تحليل الواقع ووضع الخطط والمراحل لتنـزيل هذه القيم في الكـتاب والسـنة على واقع المسلمين، ذلك أن الكلام عن قيمة الحوار وفوائده وأدواته وأبعاده في الكتاب والسـنة، على أهميته وضرورته، إذا لم يـترافق بتحليل الواقع وتنـزيل هذه القيم عليه وتدريبه عليها، تصبح

عظمة القيم الإسلامية شاهد إدانة على واقع المسلمين، فكثيراً ما نتحدث عن الحوار ونتحـــاور بأدوات وأسلحـــة المواجهـــة، التي لا تزيد الأمر إلا تصلباً وتعصـــباً وانغـــلاقاً وتعقـــيداً، حتى على مســـتوى الذات، قبل (الآخر).

ولعلنا نقول: إن الحوار مع الذات، الذي يعني الحوار مع النفس، على المستوى الفردي، والحوار مع المحيط الخارج عن النفس في الأسرة والحي والـــنادي والمدرســـة والمجتمع، هـــو الشـــرط الأساس للتدريب على الحـــوار، والتصويب للتوجـــهات، وبناء القاعـــدة الصلـــبة، وتوسيع دائـــرة المشـــاركة والتفاهم، وإزالة الحواجز النفسية، وإعادة بناء شبكة العلاقات الاجتماعية.

إن الحوار مع الذات الفردية والجمعية هو المؤهل للحوار مع (الآخر)، ومهما حاولنا أن نستدل على أن الكتاب والسنة اعتمد الحوار في التربية والدعوة والإقناع والوصول إلى المشترك الإنساني، ومهما حاولنا الإتيان بالأمـــثلة من النبوة التاريخية لحوار الأنبياء مع أقوامهم، ومصب ذلك في النـــبوة الخاتمة، دون أن نعتقد يقيناً وواقعاً بالعواقب البعيدة للحوار، وأنه نعمة من نعم الخالق، إثراءً للحياة، حتى ولو تراءى لنا نجاح المواجهة إلى حـــين، ستبقى دعوانا للحوار بلا دليل، إضافة إلى أن الحوار بشكل عام

يــزكي الــنفس، ويصقل المواهب، ويشحذ الهمم، ويمكن من البرهان، ويؤصــل للحقــيقة، ويؤسس للحياة المشتركة، ويوسع دائرة التفاهم، ويــنمي الخــبرات والطاقات، ويمنح الفرد الشفافية والسلوك الحضاري، شريطة أن تستكمل فعلاً شروط الحوار وأولها الاعتراف (بالآخر)، سواء كــان المقصود (بالآخر) على مستوى الذات بتنوعاها، أو كان المقصود (بالآخر) المختلف في عقيدته وتاريخه.

أمــا إذا لم يــتوفر الاعتراف (بالآخر) وكانت ساحات الحوار على مســتوى الذات و(الآخر) هي أشبه بعقود إذعان وإكراه، حيث النظرة (للآخــر) على أنه لا يستحق إلا أن يكون وعاء فقط، لآرائنا ونظرياتنا وأفكارنا وخطبنا، وأن من أهم مواصفاته التلقي والاستسلام، أي أنه في مرتــبة كمثل مرتبة المريد أمام الشيخ الملهم، فالحوار بهذا المعنى لا يزيد الأمة على مستوى الأفراد والجماعات إلا خبالاً.

- المراجعة والاعتراف بالأخطاء:

والحقــيقة الــتي لا بد من الاعتراف بها في عالم المسلمين، أن الحوار يكــاد يكــون غائباً تماماً على مستوى الفرد، أو إن شئت على مستوى الــنفس، فالقلــيل القلــيل في أدبياتنا أن نجد من يقوم بعملية المراجعة والاعــتراف بمسالكه الخاطئة، والكثير من تأخذهم العزة بالخطأ، ويكاد يكــون الحــوار غائــباً على مستوى الأسرة والمدرسة والنادي والأمة

والدولة؛ وأن حديثنا عن الحوار في الكتاب والسنة والسيرة والتراث، وأن الموضوعات كلها، على دقتها وخطورتها، خاضعة للحوار، كما قرر القرآن والبيان النبوي، إنما هو في غالبه للمباهاة والتفاخر وتجاوز مركب النقص الذي نعاني منه، والمؤسف أننا نرى هذه الحالة المرضية على المستويات كلها، حتى على مستوى الجماعة الواحدة، فهي ليست تجمعاً له رؤية مشتركة وإطار واحد لنظرته للحياة، وإنما هي مجموعة آحاد، لكلٍ عالمه ورؤيته، وهذا الاختلاف ليس على مستوى التنوع، الذي يغني الفكرة ويثري المسيرة، وإنما هو اختلاف تضاد وتنازع وإنهاك، وهو بحاجة للكثير من فتح قنوات الحوار المسدودة.. فالجماعة آحاد، والجماعات طوائف.. وهكذا، ونلحظ هذا بجلاء حتى على المستوى السياسي، وتستوي في ذلك الحكومات والمعارضات.

ولا شك عندنا أن بعض المعارضات لو وصلت إلى الحكم لكانت أشد وأعتى؛ لأن غياب الحوار آفة ووباء يلف الجميع، وإن شئت فقل: «ثقافة»؛ وقد لا يكون مستغرباً في هذا المناخ أن نجد حتى بعض الرموز والنماذج، الذين يتقدمون المجتمعات ويعتلون المنابر هم أكثر إصابة وصلفاً وادعاءً بأنهم هم الأفهم والأعلم ولا يحق لغيرهم الكلام، حتى ولو كان الحوار سبيلاً إلى إيصال علمهم؛ إنهم يخافون الحوار خشية أن يسويهم بغيرهم.

- **الاعتراف بالتنوع:**

هـــذا عـــلى مســـتوى الحوار مع الذات، الذي يكون ضمن أرضية واحدة، وتاريخ واحـــد، وقيم عامة واحـــدة، ووجهـــة تقريباً واحدة، لما يكون في دواخل هذه الذوات من رؤى وتوجهات وأفكار وتفسيرات وفـــوارق فردية وتفاوت ثقافي واختصاصات معرفية، لأنه يستحيل عقلاً وواقعاً أن يكون الناس نسخة مكررة عن بعضهم، ولو كان ذلك كذلك لانعدمـــت حرية الاختيار، حيث لا اختيار إلا اختيار واحد، وتعطلت إنسانية الإنسان، وتوقف نمو الحياة وتكاثر الأشياء.

فالتـــنوع هو مجال الاختيار وسبيل النمو والتكاثر والارتقاء، والحوار تجســـيد لهـــذا التنوع، والإفادة منه في إثراء وبناء المشترك الإنساني، لأن الـــتعارف الـــذي يأتي ثمرة الحوار هو سبيل العمران والتكامل والتعاون وإغـــناء الـــنفس، بميولها النفسية للاجتماع واستدراك حاجاتها الحياتية ومتطلبات تربيتها طويلة المدى، التي لا بد أن تتوفر ضمن جماعة، وإنجاز مشاريعها الكثيرة التي يعجز عنها الأفراد.

- **تحديد مفهوم (الآخر):**

أمـــا الحوار مع (الآخر) فيتطلب الأمر ابتداءً تحديد مصطلح (الآخر) هنا ومن هو فعلاً، ذلك أن الكثير من الحوارات والندوات التي يُعْنَون لها بالحوار مع (الآخر) إنما تتم غالباً بغيابه أو بالوكالة عنه أو بالوصاية عليه، أو بطرح أفكاره وإدارة الحوار حولها ومناقشتها وتحليلها وتحديد أهدافها

واستنبات نواياها من خلال خصومه، إن لم نقل أعدائه، بحيث يصدق فيها قول الشاعر: «فيك الخصام وأنت الخصم والحكم»، مع ادعاء الموضوعية والحياد والنزاهة في التناول دون استكمال شروط وعناصر الحوار الضرورية، من الحرص على حضوره، والاستماع إليه، والتبصر في دوافعه ودفاعه وأهدافه وحججه ومسوغاته.

لذلك نجد الكثير من مشاهد الحوار وندواته تقصي (الآخر) فعلياً وإن أعلنت غير ذلك نظرياً، فهي تغلق دونه الأبواب وتتجاهله، وعلى ذلك تزداد من الجهل به واتهامه، وبذلك فبدلاً من أن يكون الحوار حلاً لمشكلة التجافي والتباعد وعدم التفاهم وتوسيع دائرة المشترك وتفكيك التعصب والتحزب، يصبح مشكلة يساهم سلبياً في تصليب التعصب والانغلاق والتحزب والتشرنق، ويتحول لتسويغ وتأجيج المواجهة والصراع.

- غياب تكافؤ الفرص:

هذا من وجه، ومن وجه آخر فلعل من أخطر الآفات التي تلحق بمشهد الحوار اليوم: غياب عنصر تكافؤ الفرص في الحوار بين المتحاورين، وغلبة أجواء الهيمنة والتسلط والإذعان، حيث يتحول الحوار إلى رسالة تلقى على الآخرين بإرادة منفردة، يستخدم معها الكثير من وسائل الإرهاب الخفي لتمريرها وبلوغها أهدافها.

وفي حــالات كثيرة يتحول الحوار المَعنون له بالحوار مع (الآخر) إلى الحوار مع الذات في حقيقته، فالكثير من ندوات الحوار اليوم، التي يفترض فيها وجود عناصر متنوعة ومتباينة في فكرها وعقيدتها وتاريخها، وبكلمة مختصــرة: في حضارتها، نراها لا تخرج عن أن تكون حواراً مع الذات، حيــث يستدعى للحوار من لا يمثلون الطرف (الآخر) في عملية الحوار، وأن الكــثير ممــن يســتدعون كممثلين (للآخر)، وخاصة من الجانب الأقوى المهيمن، هم الذين يعيشــون رجع الصــدى لأفكاره، ويكونون مســكونيــن بثقافته وحضارته، فكرياً وثقافياً وسياسياً، ولو لم يكونوا يســكنون عــنده جغرافياً، وفي هذه الحالة يتحول الحوار إلى حوار مع الــذات، إلى حــوار الطرشان، الذي لا يؤدي إلى نتيجة، ويكون أقرب للاحتواء والتضليل الفكري والسياسي.

لذلك قد نجد كثيرين ممن يُختارون اليوم للمشاركة في ندوات الحوار بــين الغرب والمسلمين، أو أمريكا والمسلمين، على المســتوى الحضاري أو الديني أو السياسي، إنما يُختارون غالباً من المتشبعين بالثقافــة الغربية، أو مــن تلامــذة الغرب، من الذين يمارسون العمالة الثقافية (للآخر)، وبذلك يفقد الحوار طعمه وهدفه، وينتهي إلى ما يريده الغرب، ويتحول إلى وســيلة للهيمنة السياسية تزيد المشاكل تعقيداً، وتستدعي المواجهة، وتغيِّب الحوار والتفاهم، وتؤدي إلى صراع الحضارات الذي يريده الكثير

مــن فلاســفة الغرب، فيحل محل حوار الحضارات، الذي يحرص عيه المسلمون، بحجة أن وسائل الحوار لم تجد نفعاً، و لم توصل إلى نتيجة.

وأعتقد أن اســتقراء سيــرورة الأحــداث في العالم الإســلامي، ومــا صــارت إليه من الصور الدامية من المواجهة مع الذات و(الآخر)، يدلــل على الخلل الكبير في بنية الحوار، سواء مع الذات أو مع (الآخر)، كمــا أن ظهور الكثير من المفاجآت غير المحسوبة أو المتوقعة دليل أيضاً على أن حوار الغرب مع العالم الإسلامي كان حواراً مع الذات وليس مع (الآخــر)؛ لأن مــا نتج عنه في أكثر من منطقة جغرافية دليل على فشل عمليات الحوار عن أن تستقرئ (الآخر) وتنجح في حواره وتقدر كيفية التعامل معه.

وآفة الحوار هــذه لا تقتصر على الحوار مع (الآخر) وإنما تصيب في كــثير مــن الأحيان، إن لم نقل في الأحيان كلها، الحوار مــع الذات، حيــث لا تصــعب مشاهدة ذلك في الحوار بين الجماعات والتنظيمات والأحزاب وحتى حوار الأمة والدولة.

- تجديد المفاهيم:

وهــنا قضــية قد يكون من المفيد أن نعرض لها ولو بشكل سريع، وهي: أن الكثير من المفاهــيم والاعــتبارات، التي يخضــع لها الحــوار أو يعتمدها، ما يزال بدائياً محكوماً بمصطلحات عفى عليها الزمن، فمثلاً

عندما نقول: حوار المسلمين والغرب، نجد أن هذا الطرح فيه الكثير من الخلـط والالتباس؛ فالإسـلام ليس جغرافيا يخص منطقة معـينة، حتى ولو كثر عدد المسلمين فيها؛ وليس الإسلام معتقد عرق أو لون أو جنس بعينه، وإنما الإسلام عقيدة ومكون ثقافي متاح لكل أحد.

فالإسـلام اليوم جزء من وجـهة وثقافـة العالـم بكل جغرافيته، فهـو جـزء من نسـيج الغرب البشـري والثقافي، وجزء من الشرق، حيث أصبح أحد المكونات الفكرية والبشـرية لتلك الجغرافيا.. كما أنه لم يعـد أمراً طـارئاً ولا عارضاً ولا غريباً في الكثير من مناطق العالم، وإنمـا هـو أمر مسـتقر ومسـتمر، اعتنقـه الكثير من أهـل تلك الـبلاد الأصـليين.. فالإسـلام هو جزء من مكونات الغرب وثقافته، والمسـلمون جزء من نسـيجه البشـري وبنيتـه الصناعـية والتقنية والاقتصادية والاجتماعية.

هـذا من جانب، ومن جانب آخر فإن النظر للإسلام من (الآخر) كدين ينظم العلاقة بين الفرد وربه بعيداً عن فلسفة الحياة بكل أنشطتها وكمكون ثقافي للأمة، وبذلك يمكن رفعه وتحييده وتعطيل قيمه وإحداث فـراغ ثقـافي وفكـري يمكّن من امتداد (الآخر)، فيه الكثير من الجهل والتجاهل والتدليس والمكابرة.

- **حسن الإعداد:**

لذلك نعتقد، حتى يأخذ الحوار بعده المطلوب، لا بد من حسن الإعداد له، وذلك بتصويب المقدمات الخاطئة حتى لا تنتهي بنا إلى نتائج خاطئة تنسف جسور التفاهم، بدل أن تبنيها، وتحل المواجهة محل الحوار.

وليس من تكرار القول أن نؤكد: أن الإسلام اختيار يأتي ثمرة لبرهان وبيان وعرفان، وخطاب للإنسان العاقل المكلف المختار، الذي يمتلك أهلية النظر والفهم والاستدلال والمقاربة والمقايسة والمماثلة، كما يمتلك ذاكرة تستحضر العناصر المطلوبة لاستخدامها في المواقف المتعددة، وتؤهله للاختيار، كما أنه يمتلك اللغة التي تمكنه من البيان والبرهان.. فاختيار الدين يعتبر من أرقى أنواع الاختيار، والتوحيد أرقى أنواع الخلاص من العبوديات وسبيل إعلان المساواة واسترداد إنسانية الإنسان وحفظ كرامته، فشعار الإسلام الكبير هو: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾ بمعنى (لا مواجهة)، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾.

لذلك نقول: إن الكسب الإسلامي، أو إن شئت فقل: الكسب الإنساني، الذي محله الإنسان العاقل المختار كان ولا يزال يتحقق بالحوار وليس بالمواجهة، كائناً ما كان هذا الحوار، وإن استقراء التاريخ الحضاري الإنساني يدل على أن الإسلام انتشر بالحوار والدعوة، وإن المواجهة والجهاد إنما شُرع لحالات خاصة للحيلولة دون الفتنة: «الإكراه» وتقرير حرية الاختيار، وتمهيد سبيل الحوار، وتوفير مناخ الاقتناع.

- تجنب العنف:

إن الَعنف والمواجهة لم تأت أبداً بخير، بل لعلها تصنع حواجز نفسية، وتشــوه الصورة الإسلامية، وتحول دون الإسلام والانتشار، لذلك كان من أخطر الإصابات جر المسلمين إلى المواجهات لتشويه صورة الإسلام، وقــد يصــل هــذا التشويه إلى صورٍ من الاختراق، واصطناع عناصر وتثقــيفهم بالــثقافة المطلوبة لممارسته باسم الإسلام.. ولا ننكر هنا أن الكــثير من المسلمين قد يتوهمون أن المواجهة هي الطريق الأقصر لخدمة الإسلام ونشره كرد فعل، لأن خصمنا انتصر علينا بالمواجهة، فلِمَ لا نلجأ إليها، ولا يبصر غير ذلك، ويضحون بأنفسهم في سبيل ذلك.

وقد تغري المواجهة بما يمكن أن يتحقق من نتائج قريبة، لكنها تخفي وراءهــا العواقب الوخيمة البعيدة؛ والعبرة دائماً بالعواقب، وهذا منطق السنن وحكم التاريخ الذي اختبر هذه السنن ودلل على نضجها.

من آفات الحوار:

وقــد يكــون من المفيد، بعد أن قدمنا لمحة عن فوائد الحوار ودوره وضــرورته في بناء التعايش والتعارف والتعاون والحيلولة دون الحروب والمواجهــة، وأهميته في بناء المشترك الإنساني والارتقاء بالإنسان وتحقيق كرامــته واسترداد إنسانيته، وأنه سبيل الإسلام إلى الانتشار، والانتصار، والاســتقرار، أن نجمل بعض الآفات أو الإصابات التي تحول بين الحوار

وتحقيق رسالته في المجتمعات البشـــرية، وهذا لا يعني العدول عن الحوار أو التقليل من أهميته، على مستوى الذات أولاً ومن ثم (الآخر)، ذلك أن الحوار مع الذات هو الأساس والمرتكز للحوار مع (الآخر)، ففاقد الشيء لا يعطـــيه، وإنما يعني أنه لا بد من أن ننأى بالحوار عن هذه الإصابات، وذلك بتصويب مسيرته واختبار أدواته ووضوح أهدافه.

- تحديد موضوعات الحوار:

ولعـــل أولى تلـــك الإصابات تتمثل في تحديد واختيار موضوعات الحـــوار، وتقديـــر أهميـــتها، وكون عدم التفاهم حولها يلحق الكوارث والحـــروب والصـــراعات والفـــتن، فاختيار موضوعات الحوار وإدراك أولويـــتها وطـــرحها لـــلمحاورة والمناقشة والمثاقفة والمذاكرة والمراجعة والوصول إلى تفاهم وتعارف حولها ومن ثم التعاون، له دور كبير في إثراء الحـــوار والوصـــول بـــه إلى تحقيق أهدافه.. أما انشغال الأمة أو إشغال مثقفـــيها بـــبعض الموضـــوعات الجانبية، لاستنـــزاف طاقاتها وأوقاتها والـــتحكم بمجـــالات تفكيرها وإلهائها عن معاركها الأصلية، ففيه من الخطورة ما الله أعلم.

ونســـتطيع القول اليوم: إن معظم موضوعات الحوار وأنديته وندواته ومشاهده بعامة إنما تأتي من قبل (الآخر)؛ هو الذي يحددها حسب أجندته السياسية والفكرية وأولوياته الاستراتيجية، وما علينا إلا الاستجابة والإجابة،

وبذلك يمكن وضـــع الموضوعات المخـــتارة للحوار بالنسبة لعالم المسلمين في نطاق الفكر الدفــاعي، خاصـــة فيما يجري بعد الحــادي عشـــر من - أيلول- سبتمبر.

- فقدان الحرية:

ويترتـــب على ذلك ما يمكن أن يكون إحدى آفات الحوار الكبرى، وهـــي فقدان الحرية، التي هي من أهم مقومات الحوار وشروطه.. وهذه الآفـــة تتمثل في المسموح له والممنوع من الموضوعات في الحوار، لذلك فوجـــود بعض الموضوعات المحظورة والمحرمة على ساحات الحوار، حيث لا يســـمح بطرحها ولا مناقشتها ولا حتى الاقتراب منها، يحوِّل ندوات الحـــوار ومنتدياته إلى مخافر تدار بعقليات أمنية، وليس علمية موضوعية، الأمـــر الذي يتناقض ابتداءً مع الشروط الموضوعية والضرورية المطلوب توفيرها لإنجاح الحوار.

- عدم تكافؤ الفرص:

وقـــد يكون من الإصابات التي تترتب على ذلك أيضاً، عدم توفير الاحترام وتكافؤ الفرص للأطراف المشاركة في الحوار، الأمر الذي يحول الحـــوار لأن يكـــون نوعاً من التقرير والإملاء لأفكار ورغبات الأقوى المهيمن، والتاريخ والحاضر يحمل لنا الدلالات الكثيرة لموضوعات حوارية كانـــت المشـــاركة فيها على مستوى الأمم جميعاً للوصول إلى توصيات

ومقـــررات وصيغ إنسانية، فتأتي الدول المهيمنة لتصادرها ولتضرب بها عـــرض الحائط، وتستبدلها بما تريد، وتحمل الكثير من الدول قسراً على الموافقـــة علـــيها، خشية فوات مصالحها. وكثيراً ما تحرم الدول المهيمنة طـــرح الكثير من الموضوعات والمشروعات بالإرادة المنفردة، بعيداً عن تكافؤ الفرص.. فكيف، والحالة هـــذه، يمكن أن تصدق دعاوى الحوار، أو أن يؤدي الحوار رسالته البشرية؟

- التحكم في العناوين وتحديد الأهداف:

ومن الآفات أيضاً: التحكم في وضع عناوين وأهداف الحوار مسبقاً، وتحديـــد محاوره، واستدعاء (الآخر) المختار بعناية لملء المربع المرسوم له مسبقاً، دون أن يكون عنده حرية الرأي والنظر في غير ما حدد لها.

- تغييب الطرف الآخر:

ولعـــل مـــن أخطر آفات الحـــوار وإصـــاباته: ما يعتريه من تدليس والتـــباس وزيف، وذلك عـــندما يغيّب الطرف (الآخر) عن ساحة الحوار -كمـــا أسلفنا- ولا تتاح له الفرصة لطرح أفكاره وبيان دوافعه وأهدافه ومناقشتها مناقشة موضوعية، وإنـــما يكتفى بإحضار بعض الأشخاص للحـــوار نيابه عنه، أو بالوكالة عنه، وليس هذا فقط وإنما قد يصار إلى طرح أفكار (الآخر) ومناقشـــتها من خـــلال خصـــومه، بل وأعدائه، لذلـــك نجد أن الأحكام الفكرية اليوم في ســـاحات الحوار تفتقد البيِّنات

وفي مقدمتها الاستماع إلى وجهة نظر المدعى عليه، فهي أشبه بالأحكام القضائية التي يغيب فيها المتهم ويستمع فيها إلى الشاهد (الذي لا يعلم شيئاً).

فكيف لمثل هذه الحوارات أن تؤدي رسالتها وتحقق أهدافها، وفصولها أقرب إلى الملهاة والمهازل الفكرية والثقافية ؟

- الاستخفاف (بالآخر):

ولعل من المشاهد الحوارية المزرية، الحوارات التي تتم على مستوى الذات، في الكثير من المحافل الثقافية والفضائيات، بين اتجاهين متناقضين، أو رأيين مختلفين، والتي غالباً ما يسودها الضجيج والصياح والزعيق والاستخفاف بعقل المشاهد والسامع والمشارك، والتي هي أقرب لمناقرة وصراع الديكة منها للحوار الهادئ.

إنها ملاكمة ومصارعة لكن بالكلمات، باسم الحوار، وإن كانت لا تعدم استعراض العضلات وحركات الأيدي، فبدلاً من أي يؤدي مثل هذا الحوار للوصول إلى مشترك إنساني، يزيد الفرقة، ويثير الأحقاد، ويعمق الخلاف، ويغتال المشترك، وينتهي إلى العداوة والتربص والسعاية وسوء النية.

إن مثل هذه الندوات والمشاهد التي تسمى حوارية هي أقدر على الهدم والمنابذة، منها على البناء ومعالجة الفجوات، والوصول إلى التفاهم،

وبناء المشترك الإنساني، وقد لا ينتج عنها إلا إبراز شخصية مقدمي الحوار والبرهنة على أهميتهم وطول باعهم في العلم والثقافة، واتخاذ ساحة الحوار مجالاً للغطرسة ومصادرة الآراء وتقطيعها وطرح اتجاهاتهم الفكرية والسياسية، حتى ولو كان ذلك على حساب المتحاورين والحوار نفسه(!)

- غلبة عقلية الهيمنة:

ومن الآفات والإصابات أيضاً: عدم الإيمان بالحوار أصلاً، وسيطرة فكرة الغلبة والهيمنة وصراع الحضارات، واتخاذ الحوار ذريعة ومدخلاً لدراسة (الآخر) واستطلاع مواقعه الدفاعية، ووضع الخطط المطلوبة لمواجهته والسيطرة عليه.

إن انطلاق مبدأ الحوار إنما يكون من الإيمان ابتداءً بالحرية والاختيار الإنساني في الوجهة والاعتقاد، والاقتناع بأن التنوع حقيقة وواقع، وأن الاختلاف حق من حقوق الإنسان وكرامته، وأن الحوار لا يعني ولا يُطلب منه إلغاء التنوع ومصادرة حق الاختلاف وإكراه الناس على ما لا يختارون.. فأصحاب الرؤية الآحادية، الذين لا يمتلك تراثهم وقيمهم حق التنوع والاختلاف غير مؤهلين ثقافياً وحضارياً لتقنية الحوار، ولو ادعوا ذلك؛ لأنهم يعتقدون أن الصراع هو السبيل الوحيد للقضاء على (الآخر)، وترويضه وتعبيده للسيد المهيمن. لذلك نجد

أن كل المعلومات والمعارف والمخترعات والتكنولوجيا، إذا قُرئت أهدافها بدقة تبين منها أنـــها إنما أنتجت للســـيطرة والصراع والمواجهة وتأمين الغلبة، ولعل هذا يفسر التقدم الهائل في العلوم التكنولوجية على حساب الإنسان نفسه.

لذلـــك قـــد لا يكون مستغرباً أن نجد دولاً حديثة وحضارات قام كيانها كله وأدواتها ومكوناتها ومخترعاتها وأنظمتها السياسية وأدبياتها على المواجهـــة، لأنه من الصعب عليها البقاء والاستمرار بدون وجود عدو، وعـــند عدم وجوده فعلاً لا بد من اصطناعه، حتى ولو كان شبحاً غير موجـــود. ولعـــل هذا يفسر الكثير من الأبعاد الإعلامية والاستراتيجية واللوجســـتية والتحالفـــية التي تخطـــط لهـــا الدول المهيمنة اليوم، وأن الـــندوات ودعـــوات الحوار لا تخرج عن كونها غطاءً لا بد منه للظهور بالمظهر الإنساني.

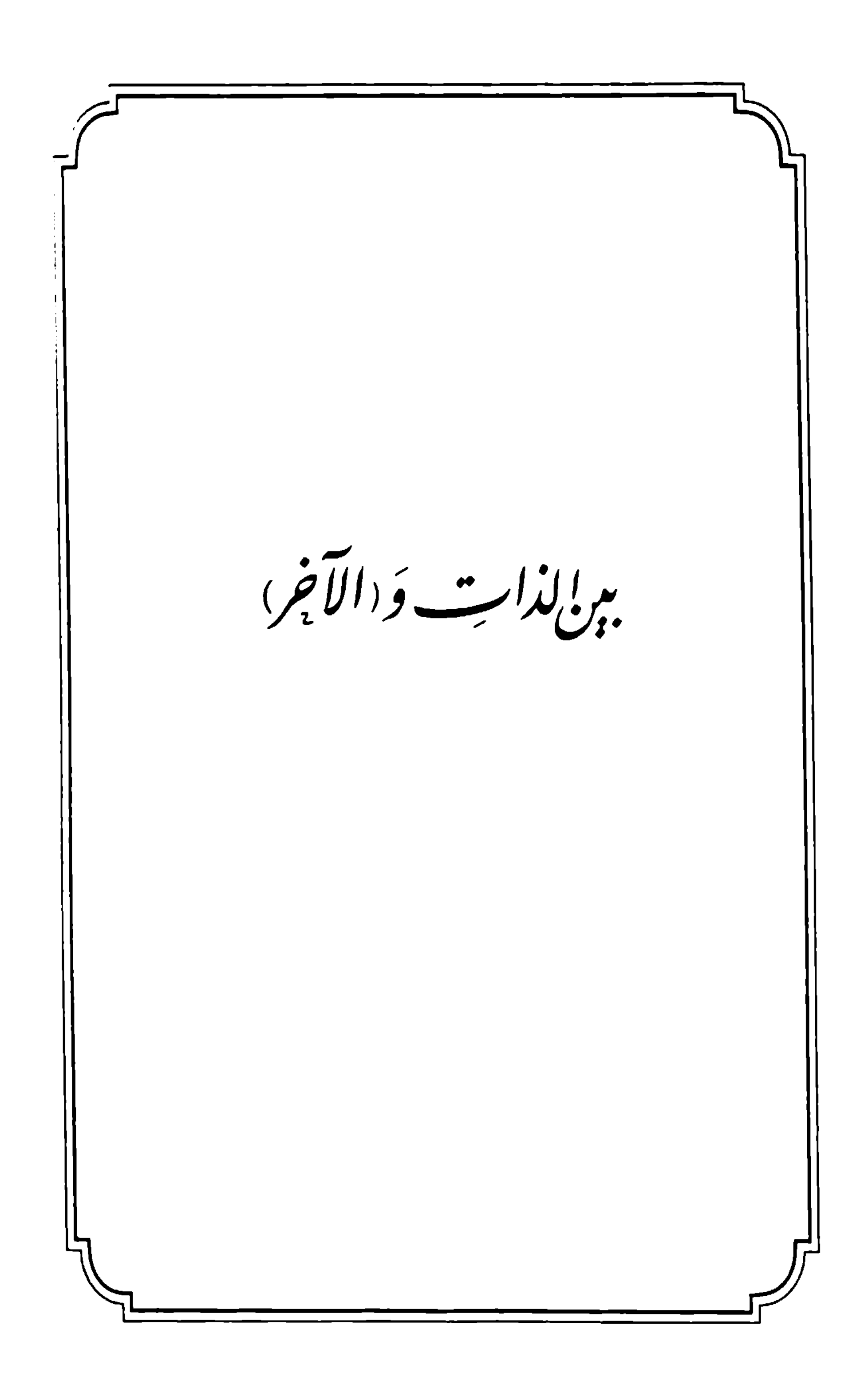
نعود إلى القـــول: إن مشهد الحـــوار في الكتاب والسنة، وما عرض له من حوار الأنبياء مع أقوامهم، ابتداءً من نشأة الخلق الأولى، والامتداد بـــه في الرســـالة الخاتـــمة، حتى النشـــأة الآخرة، استغرق كل جوانب الحـــياة، وعرض لكل الحـــالات، وطـــرح كل الموضـــوعات، وناقش جمـــيع المعتقدات، والملفت حقاً أنه أفرد لمعتقـــدات (الآخر) المساحات التعبيرية الكبيرة.

لقــد كان الحوار هو وسيلة الأنبياء في دعوتهم إلى أقوامهم، مع أنهم يمــتلكون الحقــيقــة المطلقــة، المؤيدة بالوحي، المسدده به، وأن النبوة تاريــخياً لم تعمد إلى المواجهــة وكان شعارها الكبير -كما أسلفنا-: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾ ، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾، إلا في حــالات استثنائية جداً، وذلك لحماية عملــية الحوار وضمان استمرارها؛ لأنها تؤمن أن القوة والمواجهة ليست وســيلة إقــناع ودعــوة، الأمر الذي يشكل رصيداً ثميناً ومنجماً ضخماً لأصحاب الرسالة الخاتمة، ورثة النبوة التاريخية، وذلك عندما يكونون حقاً مــن ورثة النبوة، ويمارسون باستمرار حوار أنفسهم ومراجعتها لتصويب أدائهــم ومحاولــة الإفادة من الأساليب الحوارية بكل أجناسها وأشكالها وموضــوعاتها، والــتدرب عليها عملياً، ولا يكتفون بالفخر والمباهاة بها، ويعــلمون عــلم اليقين أن فاعليتهم أو سلاحهم الفاعل ونصرة مبادئهم الإنســانية إنمــا هــو الحــوار، وأن هزيمتهم والسيطرة عليهم إنما تتحقق باستفزازهم وجرهم إلى الصراع والمواجهة.

فخصــومنا وأعداؤنا هم الأقوى في المواجهة، ونحن تاريخياً لم ننتصر بعدد ولا عدة، وإنما كان نصرنا بهذا الدين، حيث كنا ولا نزال، بما نمتلك من قيم إنسانية تعترف بإنسانية الإنسان وتقرر كرامته وتدعو إلى السلم والتعايش والتعارف، الأقوى في الحوار.

لذلـــك كم نحن بحاجة إلى عمل تأصيلي وإسهام جاد لتغيير المسار النفســـي وإشـــاعة ثقافة الحوار، التي كادت تغيب بالأقدار المطلوبة عن الذهنية الإسلامية، سواءً مع الذات أو (الآخر) على حد سواء، والدعوة إلى ممارســـة الحوار الداخلي ابتداءً من الحوار مع النفس والانطلاق به إلى الأســـرة والمدرسة والنادي والمجتمع والدولة، حتى يشمل فعاليات الحياة كـــلها، وانتهاءً بالحوار مع (الآخر) المختلف في عقيدته وتاريخه وثقافته، والعمـــل عـــلى تصويب عملية الحوار ذاتها، وإيضاح شروطها وأدواتها وعناصرها وأخلاقياتها، والمعارف النوعية المطلوبة لها، سواءً على مستوى الـــذات أو (الآخـــر) حـــتى تؤتي ثمارها، وتخلص الذهنية الإسلامية من الآفـــات التي انتهت إليها بســـبب من المعاناة وردود الأفـــعال، لتدرك أن ما تمتلكه من القيم المعصومة في الكتاب والسنة ورصيد النبوة التاريخي هـــو ســـلاحها الفعـــال، وهو سفينة النجاة للإنسانية جميعاً، بعد هذه الـــتجارب المريـــرة من المواجهات التي لم تحمل لنا إلا الصابّ والعلقم، وكانت السبب الرئيس في محاصرتنا وشل حركتنا وتلفيق التهم لديننا.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.



بين الذات والآخر

اقتضـــت حكمة الله سبحانه وتعالى وتدبيره للحياة الدنيا أن ينحدر الناس جميعاً من أصل واحد، ويتعاونوا، ويتكاملوا، كأفراد أسرة واحدة، فقـــال تعـــالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (الحجرات:١٣)، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (النساء:١)، قضى عدلـــه أن يكون ميزان الكـــرامة الإنسانية أمراً كسبياً اختيارياً، وليس أمراً قسرياً إجبارياً لا يد للإنســـان فـــيه، فقـــــال تعـــالى:﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجـــرات:١٣)، فمن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، فـــلا الأجناس ولا الألـــوان ولا الأقوام ولا سائر الأمور القسرية، التي لا يد للإنـــسان في وجـــودهـــا أو تغييبها، تعتبر ذات وزن أو قيمة أو معيارية في ميدان الكرامة الإنســـانية، إذ لا يد ولا اخـــتيار للإنســـان في أن يُخلق أبيضاً أو أســـوداً، أو عربياً أو عجمياً، أو ذكراً أو أنثى، أو من الأسرة الفلانية أو العلانية، ذلك أن اعتماد هذه المعايير القسرية يعني عين الظلم.

إن ما يترتب على الأمور القسرية، من فلسفات ومسوغات، إنما هو في حقيقـــته لوضــــع مشروعية للتسلط والاستئثار والتحيز، لأنها جميعها تناقض العدل والعقل، وتملأ الدنيا بالصراعات والأحقاد والثأر والانتقام، وتؤجـــج نـــار العداوة والبغضاء، وتستدعي الحروب والنـــزاعات، التي تلـــتهم البشرية، بسبب غياب موازين العدل والكرامة السليمة، وتسويغ تســـلط الإنسان على الإنسان، الذي يعتبر مصدر الشر في العالم، مهما اتخذ هذا التسلط من أشكال التدليس وفلسفة التبرير والتمرير.

ولقد جسد الرسول ﷺ المرسل للناس كافة، بشيراً ونذيراً، المبيِّن عن ربـــه مانـــزل إليه، جسد معاني المساواة وحرية الاختيار، وأكد موازين الكرامة الإنسانية، بشخصه وسيرته ومجتمعه وتعاليمه، المعلّم لقيم العدل والخـــير، والـــنذير لما يمكن أن ينـــزلق فيه البشر بطبيعتهم، لأن شياطين الإنـــس والجن بالمرصاد لاغتيالهم والانحراف بهم عن الحنيفية، قال ﷺ: «**أَلا إِنَّ رَبِّـــي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا ... إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْـــزِلْ بِـــهِ سُـــلْطَانًا...**» (أخرجه مسلم)، وإغرائهم بالتعالي والتسلط والتمـــيز، قال تعالى في حـــكاية موقف الشيطان من آدم عليه السلام: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (ص:٧٦).

ولعل ما عرض له ﷺ من عظيم المعاني بعد فتح مكة، وما تحقق من نصر كبير، وبناء دولة الجزيرة وخضوعها للمسلمين، وما يمكن أن يكون من نشوة النصر، التي قد تخرج بالإنسان عن توازنه وانضباطه بالمنهج القويم، وفي مقدمتها الاستكبار، فقال: « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ**» (أخرجه الترمذي)؛

وما أكده في حجة الوداع، واستأمن الأمة عليه، ما يلفت النظر إلى أهمية الانتباه إلى هذه المعاني واستمرار حراستها؛ لأنها المقوِّم الأساس لوجود الأمة، وحفظ كيانها، واستمرار رسالتها في إنقاذ البشرية.. إن خطبة حجة الوداع هي رسالة المودع، الذي يستودع أمته المعاني الكبرى، التي تستأثر باهتمام زمن الوداع الأخير ومكان الوداع.. إنها عهد النبوة عند مهبط الوحي.. وعادة ما تكون وصية المودع لأهم وأخطر ما يستشعره، ويستشرفه، ويهمه، ويتخوف من حدوثه، وعدم الانتباه لمخاطر التفريط فيه، قال ﷺ:

- « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ: أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى**» (المساواة ومعيار الكرامة) (أخرجه أحمد).

- «**كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**» (أخرجه مسلم).

- «**لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**» (أخرجه البخاري)، مما يمكن أن يعتبر من ركائز حضارة الأمن.

من هنا يأتي التأكيد على أهمية بذل الجهد للعودة بالأمة المسلمة إلى الينابيع الأصلية، في القرآن والبيان النبوي، والنهل من معينها الخالد، وإنهاء القطيعة، ومعاودة الصلة بما تمنحه من القيم المعيارية المستمدة من معرفة الوحي، والمبرأة من الظلم والجور والتحيز وتسويغ تسلط الإنسان على الإنسان، تحت شتى المعاذير والمسميات والمسوغات.

ذلك أن المطلوب اليوم، أكثر من أي وقت مضى، العودة إلى تحرير هذه المعايير مما يمكن أن يكون لحق بها من فهوم وميول وأهواء واجتهادات البشر، وتأكيد مفهوم أن فعل العقل واجتهاده وكسبه، من خلال تعامله مع القيم المعيارية في القرآن والبيان النبوي، مهما بلغ لا يمكن أن يكتسب صفة المعيارية والقيمة، والتحول بالمسلم من نص الشارع إلى قول الشارح والمجتهد والمفسر.

ولعل الإصابة الأخطر على الحياة الإسلامية والمسيرة الثقافية الإسلامية، أو مسيرة التدين الإسلامي بشكل عام، تكمن في محاولات نقل العصمة والقدسية من نص الله الشارع إلى اجتهاد الإنسان الشارح،

ذلك أن الاجتهاد الصادر عن الإنسان بطبيعته خاضع لعدة عوامل ومؤثرات شخصية وزمانية ومكانية، تنفي عنه صفة التجرد، ولا تكسبه المعيارية وعدم الانحياز.

وحتى لو تم هذا الاجتهاد ضمن إطار القيم المعيارية، وإن كان ذلك يمنحه خصائص ومميزات تحول دون انفلاته، وانضباطه بمرجعيته، وتميزه عن الرؤى والاجتهادات والفلسفات السائبة من كل معيار، ويجعله الأقرب للتجرد والصواب، ويخلصه من كثير من الأهواء والشخصانية، إلا أن ذلك لا يخلصه من الصفة البشرية، وما يجري عليها من الخطأ والصواب، ولا ينقله إلى مجال المعيارية، هذا من جانب، ومن جانب آخر لا يمنحه القبول عند الإنسان (الآخر)؛ لأنه في المحصلة النهائية لا يخرج عن كونه من اجتهاد إنسان مثله، وفي هذه الحال لا يؤمن من الانحياز والتسلط والتمييز لقومه، وعشيرته، وأسرته، وحزبه، ولونه... إلى آخر هذه السلسلة من المؤثرات، خاصة وأن الناس جميعاً يعتقدون وكأنهم في هذه الحياة يعيشون على مائدة مستديرة، كما يقال بالعرف الدبلوماسي، فهم متساوون، لذلك فمن أين لهم أن يقبلوا من إنسان مثلهم أن يضع المعايير والموازين لآرائهم واجتهاداتهم؟ ومن أين لهذه المعايير التجرد، وعدم التحيز، وعدم التأثر بالميول البشرية، على اختلاف أنواعها؟

مصدرية القيم المعيارية:

لذلك، ما لم تأت المعايير التي محلها فعل الإنسان وكسبه ورأيه، من جهة خـــارجة عن الإنســـان، فلا يمكن عقلاً وواقعاً أن تبرأ من التحيز، أو تـــتحرر مـــن المؤثرات الشخصية، ولا يمكن أن نضمن لها القبول من الإنســـان (الآخـــر) المســـاوي بأصل الخلق، إضافة إلى أن هذه المعايير الموضـــوعة مـــن قبل الإنسان للإنسان (الآخر) يمكن أن تشكل جسراً للتسلط والتحكم والسيطرة.

وهذا المصدر، الخارج عن وضع الإنسان، حتى يكون مقبولاً، لا بد له أن يكون متصفاً بالعلم المحيط المطلق، والحكمة البالغة؛ متصفاً بصفات الكمـــال، مـــنـــزهاً عن أي نقص؛ له سلطان الحكم والأمر؛ يعلم السر وأخفى؛ يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور؛ مالك يوم الدين؛ هو الذي يحي ويميت؛ ولا يضيع عنده مثقال ذرة من خير أو شر، يوم يقوم الناس لـــرب العـــالمين؛ هو رب الناس جميعاً؛ إله الناس؛ وملك الناس؛ الناس سواســـية أمامـــه، على أن يشكل هذا المصدر، بصفاته العلا، محل إيمان وقـــناعة للإنسان، بأنه المصـــدر الأوحد، المحيط علمه بحاجات الإنسان ومـــا يصـــلحه؛ الذي يستشعر الإنسان أمامه المسؤولية التي تمنحه الحرية والاختـــيار المـــؤدي إلى المحاسبة والالتزام، وتوقظ فيه الوازع الداخلي، والرقيـــب الـــذاتي، الذي يحمله على الانضباط بالقيم، ومساءلة نفسه، وتقويم سلوكه، حتى لو غاب الرقيب المادي.

وكـــم جهدنا، واجتهدنا، وحاولنا، وما نزال، لفت النظر إلى خطورة هـــذه الإصـــابة، وبيان مخاطرها، ومحاولة فك الالتباس بين الذات والقيمة، لنضمن للمعايير والقيم، في الكتاب والسنة، حيادها، وعدم تحيزها وتأثرها بالفعل البشري، وحتى لا تنقلب الذات إلى قيمة والقيمة إلى ذات.

إن تلبس الذات بالقيمة، وتحول المعيارية إلى الذات، أصابت الكثير من أشـــكال التدين الإسلامي في مقتل، وساهمت بتسلل علل التدين من الأمم الســـابقة إلينا، وشكلت طبقة من رجال الدين، شبيهة بطبقة الأكليروس، اعتـــبرت نفسها معياراً، وحملت الناس على ذلك من خلال كهانات هي أشـــبه بالأوثان البشرية، وتحولت القيم المعيارية في الكتاب والسنة إلى خانة التبرك والتلاوة على الأموات، بدل أن تحي قيم الكتاب والسنة موات الأمة، وتصوّب وتقوّم فعل الأشخاص كبشر، ليستقيموا على الطريقة.

إن تحـــول الـــذوات والأشخاص، ومن نصبوا أنفسهم للنطق باسم الديـــن، إلى قيم معيارية، رغم ما يعتريهم من إصابات، وإقامة الحواجز النفسية والعملية والإرعاب الفكري دون مناقشة آرائهم، هو الذي أدى بالأمـــة إلى هذا التخلف والاستنقاع والركود، وعدم التجرؤ على النقد والـــنقض والمـــراجعة والحوار، لأن صفة العصمة المُدّعاة تعطل الفاعلية وتحـــول دون الحراك الثقافي ومحاولات التصويب؛ لأن نقد التدين والحالة هذه يتحول إلى نقد لقيم الدين؛ والنقد لبعض الذوات التي تدعي القداسة هو نقد للشريعة التي يحملونها؛ وادعاء نقد الشريعة التي يحملوها يؤدي إلى

الكفر بمنزّل الشريعة (!) وقد يصل الإرعاب إلى درجة أن نقد الاجتهاد البشري موصل إلى الكفر بالله، والعياذ بالله تعالى (!)

إن تلبس الذات بالقيمة، والمعيار بالشخصانية، حرم القيم الإسلامية من صفة التجرد والمعيارية، وقرّبها من خانة التحيز، و لم يجعل لها كبير تميز عن سواها من الإنتاج البشري للقيم، وبذلك اختلط الدين بصور التدين، و لم نعد نفترق كثيراً عن غيرنا، في تحزبنا وتعصبنا وممارساتنا؛ وإن كان التدين والاجتهاد في الإسلام ليس منفلتاً من مرجعية قيمية، وإنما ما يميزه أنه يتحرك من خلال قيم مستمدة من خارج الإنسان.

إن الإشكالية الكبرى التي يعاني منها العقل المسلم اليوم تكمن -كما أسلفنا- في هذا الالتباس الخطير بين الذات والقيمة، الذي ينتهي بالقيم الإسلامية المجردة إلى خانة التحيز والتأثر والاصطباغ بالشخصانية، ويحول دون التأمل والمفاكرة والمراجعة والنقد للإنتاج البشري، ويحيط هذا الإنتاج بنوع من القدسية المغشوشة، والأسوار الدينية الموهومة، ويبقي حالة الركود والجمود، ويكرس واقع التخلف على الأصعدة المتعددة.

ولعل سبب تفوق (الآخر) علينا هو - من بعض الوجوه - أن إنتاجه الفكري، على الرغم من أنه غير مؤطر بقيم خارجة عن وضع الإنسان، تشكل له معايير، خاضع دائماً للنقد والمراجعة، والتخطيء والتصويب، والإلغاء والرد.. مثل هذا الحراك، هو الذي يؤذن بالتقدم والارتقاء، على الرغم من الإصابات التي يعاني منها، والتحيز الذي يحكمه.

من صور الإجهاض للقيم:

إن الإصابات الخطيرة في صور التدين، رغم عصمة قيم الدين، أدى إلى إقامة حواجز وأسوار سميكة حالت بين (الآخر) واستيعاب تجرد القيم الإســـلامية المعيارية وعدم تحيزها، ذلك أن التحيز أصبح قائماً ومحتملاً وواقعاً، بسبب هذا التلبس بين الذات والقيمة؛ حتى لقد وصل الأمر إلى نوع من المفارقات العجيبة والرعيبة في الوقت نفسه، ولعل ما ذهب إليه بعض المجتهدين «أبو الحسن الكرخـــي» من القول: «كل آية أو حديث يــخـــالف مـــا عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ»[1]، يشكل نافذة دقـــيقة للإطلالـــة منها على المناخ الثقافي المغشوش للتدين، وعلى حالة التخلف، ومسيـــرة التخلف والجمود، التي نتجت بســـبب تلبس الذات بالقــــيمة، أو الانـــتهاء بالقـــيم المجـــردة إلى خانة الانحياز والتعصب والإصابات الشخصية، التي أفقدتها المعيارية والبراءة من الانحياز، والنأي بها عن الأهواء الشخصية.

ولا شـــك أن مقارنة بسيطة بين قول «أبي الحسن الكرخي» الحنفي وبـــين قول «أبي حنيفة» إمام المذهب في من سبقه من المجتهدين: «هم رجـــال ونحن رجال» يظهر الانقلاب الجذري والانتكاس الثقافي الذي أصاب العقل المسلم، وانتهى إلى التحيز والجمود والمحاصرة لقيم الكتاب والسنة الخالدة.

(١) رســـالة الإمام أبي الحسن الكرخي في الأصـــول، طبعت ضمن كتاب: تأسيس النظر، للإمام أبي زيد الدبوســـي الحنفي (بيروت: دار ابن زيدون، القاهـــرة: مكـــتبة الكليات الأزهـــرية) ص١٦٩-١٧١.

ولعلنا نقول هنا: بأن هذه الحالة تمثل نوعاً من الإجهاض للقيم المعيارية، وتنزع عنها عصمتها وتجردها، وتصيب المؤمنين بها، المنطلقين إلى الاحتكام إليها، بنوع من الإحباط والانكسار الثقافي، حيث تمكّن هذه الحالة لتفوق (الآخر)، الذي يعتمد العقل وينكر الوحي، في الوقت الذي يتخلف فيه الذي يؤمن بقيم الوحي ومكتسبات العقل، دون أن يدري السبب الحقيقي لمشكلة التخلف... وبذلك تصبح قيم الوحي وحملتها محل استهانة وازدراء، ويصبح الواقع الثقافي البائس مستدعياً للعلمانية أو العقلانية والحداثية، وكل المفردات والمصطلحات التي تحاول تجاوز قيم الدين، أو ما إلى ذلك من المصطلحات والتسميات المتولدة من ثقافة وقيم (الآخر).

ونود معاودة التأكيد أن قيم الوحي، في الكتاب والسنة، هي قيم معيارية لضبط المسيرة وتأطيرها وتحديد منطلقاتها وأهدافها؛ وهي لا تخرج عن كونها معايير وأدلة، وليست برامج وخططاً في مجالات الحياة المختلفة، ذلك أن البرامج والخطط والتدابير الإدارية ليست ديناً تحرم مناقشته ونقده وتغييره، هي من كسب العقل ووضعه، ودور القيم ضبط مسيرتها ومعايرتها، حتى لا تنحرف أو تنحاز، لكن الإشكالية - فيما نرى- في الخلط والالتباس بين القيم والبرامج، بين الذات والقيمة، بين المعيار والفعل البشري، محل المعايرة، بين القيمة المعصومة

والاجــــتهادات البشرية التي يجري عليها الخطأ والصواب، أو بين المقدس والبشري، بين المطلق والنسبي؛ بين المجرد والمجسَّد...

ومـــا لم تتضـــح هـــذه القضية- ووضوحها هو الذي يأذن بالنقد والمـــراجعة والتصـــويب - فسوف تصبح الاجتهادات على ما تحتمل، وصور التدين على ما ينالها، هي قيم الدين؛ ويتحول المعيار المجرد المنـــزه عن الانحياز إلى الشخص، الخاضع للكثير من الأهواء والتأثيرات.. فتنقلب المعادلـــة، فنعرف الحق بالأشخاص ولا نعرف الأشخاص بالحق، فيكرس الانحراف والانحياز، ولا تفترق ساحة التدين عن الساحات المنكرة للدين، إن لم تصبح أكثر سوءاً وتخلفاً واستغلالاً.

فلسفة الانحياز للاختيار:

والحقيقة التي لا مراء فيها، أن الإنسان، بكينونته وطبيعته، ينحاز إلى اختياره، وينتصر إلى معتقداته، ويعتقد أنها تمثل الحق المطلق، لأن في ذلك إثباتاً للذات، والتدليل على سموها وقيمة اختيارها. ومن الأمور الطبيعية أيضاً أن يقع الإنسان تحت تأثير بيئته، وأسرته، وطبيعة مسيرته التعليمية، ونـــوع انتمائه، من وطن أو حزب أو عشيرة أوقرابة؛ إضافة إلى ضعفه أحـــياناً أمام شهواته ونزعاته المادية؛ التي يتقلب فيها هو ذاته بين الإقدام والإحجام، والتوبة والعـــود، ولو كشـــف الغطاء تماماً عن واقع العالم، وما يسقط فيه من الفساد والرشاوى والجنس والمال والمخدرات، لم يزدنا ذلك إلا يقيناً، ويبقى الاستكبار أخطر أشكال الانحياز والتعصب.

وقـــد تكون المشكلة هنا، أن الإنسان الذي ينحاز وينتصر لاختياره، وهذا طبيعي، إنما تكمن في ضيق صدره بأن يكون للإنسان (الآخر) نفس الحق في الاختيار والانتصار لخياراته.. وهذا هو غير الطبيعي.

لذلـــك، فالإنسان في ضوء ذلك كله، عاجز عن وضع المعيار المجرد عـــن الانحياز لنفسه ولغيره على سواء، لذلك وحتى نضمن نزاهة المعيار وبـــراءته مـــن الانحياز والتلاعب تماماً، لا بد أن يُستمد من مصدر آخر خـــارج عن وضع الإنسان نفسه، مؤهل بعلمه ونزاهته عن الانحياز، فإذا كـــان فعـــل الإنسان هو محل المعايرة، فكيف يمكن أن يُتصور أن يكون الإنســـان نفســـه واضع المعيار؟ هو المعيار وهو محل المعايرة، هو الوسيلة وهو الهدف، هو الأداة وهوالمؤدى، أي المحل؟

حتى في مجال الأمور الحياتية، الاقتصادية والإدارية والسياسية، فالأمر المتعارف عليه أنه لا يجوز للجهة القائمة بالعمل أن يناط بها تقويم العمل وبيان مدى نجاحه وإخفاقه، لأنها بطبيعتها سوف تنتصر لفعلها، وتتستر على خطئها، وتنحاز لاختيارها وفعلها.

مـــن هنا نقول: الانحياز أمر ملازم وحتمي لطبيعة الإنسان، والبراءة مـــن الانحياز لا تتحقق إلا بأن نستمد المعيار من خارج الإنسان نفسه. فإذا كان الإنسان يتلبس بالمعيار - كما أسلفنا- ليصبح هو المعيار، وهذا مـــن أشد أنواع الانحياز وتضخيم الذات، فكيف سيكون الحال عندما يضع هو المعيار؟

لذلك فالعلوم الإنسانية بعمومها، لا تبرأ من التحيز، لأنها مشبعة بشخصانية منتجيها، وبالتالي فلا تصلح أن تُعتمد معياراً للنفي والإثبات، هذا إن صحت تسميتها علوماً، بالمصطلح المدرسي للعلم، وتسويتها بالعلوم التجريبية.. ذلك أن العلوم التجريبية، محلها أشياء الإنسان المادية، المنضبطة بحدود الزمان والمكان والطبيعة والنوع، وهي محكومة بالنتائج القريبة، فلا بأس أن يكون الإنسان محلاً لوضع معاييرها ومناهجها، لضيق مساحة الانحياز فيها، وإنما الانحياز يكون بأمر خارج عنها، من مثل الانحراف بأهدافها ومنطلقاتها.

أما العلوم الإنسانية فإن محلها الإنسان، بكل تكويناته وتعقيداته وتقلباته، وهي بطبيعتها بطيئة الإيقاع، ومحكومة بالعواقب والمآلات البعيدة، وليس بالنتائج الحاسمة القريبة، التي تترتب على المقدمات نفسها، فميدانها غير ميدان العلوم التجريبية، وأدواتها أخرى، وأزماتها أخرى، ونواتجها أخرى، وأزمنتها وعواقبها أخرى، وبالتالي فلا يمكن أن نحكِّم المناهج العلمية التجريبية بميدان الدراسات الإنسانية، يضاف إلى ذلك أن الحقيقة العلمية واضحة واحدة، وإن اختلفت فلسفتها وأهدافها وتوظيفها، بينما القضايا الإنسانية غامضة، ومناهجها قد تتعدد بتعدد العلماء، فنظريات ومناهج علم الاجتماع مثلاً يمكن أن تصل إلى عدد العلماء الذين اشتغلوا فيها، وهكذا سائر العلوم الإنسانية الأخرى، حيث

تتحكم عدة عوامل في بناء المنهج، وليس في طبيعته فقط، وقد يفصَّل المنهج فيها وفق أهداف وسياسات وفلسفات مسبقة.

ومع ذلك لم يقتصر الانحياز على العلوم الإنسانية، وهي محل للانحياز، بل تجاوز الاعتداء والانحياز إلى مناهج العلوم التجريبية، وحاولت السياسة توظيفها لإثبات علو وتفوق عرق، أو لون، أو حضارة، أو دين، فاختبرت الدماء، وقاست الجماجم، ودرست الجينات، وبذلك وضعت فلسفة ومسوغات الاستعمار والانتداب والحماية والوصاية.. وتمحورت كثير من الحضارات حول اللون، أو الجنس، أو القوم، واعتبر ذلك معياراً مطلقاً لسائر أنواع الفعل البشري، وسائر الأمم والحضارات.. فإذا وافق الإنتاج البشري هذا المعيار، كان حضارياً، وإن غايره كان متوحشاً وبربرياً، يحتاج إلى إصلاح، وإعمار، واستعمار، وتحضر، ويحتاج إلى قيم الحضارة الغربية في الديمقراطية والحداثة والعلمانية؛ ولا أدل على ذلك من تقدم الغرب وتخلف المسلمين (!)

ولعل تلك الرؤى والفلسفات، المنحازة والمتحيزة، انطلقت في ذلك من خلفيات ثقافية، ورؤى دينية وفلسفية.. فالفلسفة اليونانية، التي تُعتبر أم الفلسفة والمرجعية الأساس للثقافة والفلسفة الأوروبية، تعتبر أن الناس بأصل الخلق متفاوتون، وأن بعضهم خلقوا أسياداً للسيادة والقيادة، وبعضهم خلقوا عبيداً لخدمة الأسياد؛ وأفلاطون في جمهوريته الفاضلة أكد ذلك وكأنه حقيقة علمية، وامتد ذلك لاعتبار بعض الأمم

والحضارات هي ذات السيادة والمعيارية بأصل خلقها، لا بقدر كسبها، وبدأت تنظر للعالم نظرة دونية على هذا الأساس.

والــرؤية الدينية، التي صاغها البشر، لم تبرأ من ذلك، بسبب العبث البشري بقيمها والتحريف والتأويل لنصوصها، فالله أعلى وأجل عن هذه الترهات والخيالات المريضة، وهو منــزه عن الظلم ومحاسبة الناس على ما لم يجنوه أو يفعلوه.

فــنظرية الشعب المختار، ونظرية أبناء الله، ما تزال تأخذ مساحات ثقافية وممارسات سياسية واجتماعية، بشكل معلن أو خفي، ولقد انتقلت عدوى هذه الأساطير إلى بعض الفلسفات والرؤى السياسية اليوم لوضع فلســفة محكومة بخلفية دينية خفية، ومفردات ومصطلحات دينية اتخذت مسوغاً للسيطرة على العالم، وكانت العلوم الاجتماعية والإنسانية ميداناً لهذا العبث والتضليل، ومعاودة الانطلاق بشعارات ومسميات وفلسفات جديدة لمضامين قديمة؛ فألمانيا فوق الجميع، والعرق الآري رأس العروق، والرجل الأبيض سيد الألوان، والإنسان الأوروبي باني الحضارة ومعيارها، والمنبوذ هو الإنسان «النجس» بطبيعته.

و لم يحــدث ذلك فقط في الإطار الفلسفي، وممارسة العبث والنفاق الــثقافي والأساطير الدينية، وميدان العلوم الإنسانية، وإنما امتد أيضاً إلى حقــول العلــوم التجريــبية والبيولوجية، فالجماجم تختلف، والجينات تتفاوت، وصفاء السلالات يختلف... إلى آخر هذه القائمة الــتي وضعها عــلماء الســلطان - فللسلطان علماء حتى في نطاق العلوم التجريبية-

وفلاسفة السلطان، ومثقفي السلطان، وحاملي دين السطان، الذين لا همّ لهم إلا صناعة المسوغات، ولو على حساب الحقيقة العلمية والاجتماعية.

ولا أدل على ذلك من نزعات العنصرية والتعصب وثقافة الكراهية، التي بدأت تستيقظ من جديد، ويساندها عدد من السياسيين والقادة، والأحزاب والجماعات، ويسير تحت لوائها الكثير من التخصصات العلمية، ويسوغها مجموعة من الكتاب والمفكرين، ويدعمها أصحاب الرؤى والأساطير الدينية والأيدلوجيات العنصرية، علماً بأن الاستقراء للتاريخ الحضاري والإنساني، وما خضع له من سنن التداول ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١٤٠)، وسنن الأجل ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ (الأعراف:٣٤)، يؤكد أن الراية الحضارية، أو راية الحضارة، دون المناقشة لمضمونها، لم تكن حكراً على أمة على مدى التاريخ، ولم تتركز في منطقة جغرافية دون سواها، لم تغادرها، وأن الكثير من الحضارات، تاريخياً، اضطلعت بها شعوب وأجناس وأعراق وبيئات متنوعة، ومناطق جغرافية مختلفة، حتى لنكاد نقول: إنه من الصعب وقف الحضارة على شعب بعينه، أو منطقة بعينها، أو لون أو جنس بعينه، إنها نتاجهم جميعاً، وعطاؤهم جميعاً؛ لأنها حضارة الإنسان أينما كان، وحيثما كان، إنها مشترك إنساني متراكم، ولعل أدل مثال على ذلك الحضارة الإسلامية.

فإذا تجاوزنا اللغة العربية -واللغة أمر كسبي- التي نبغ فيها الأعاجم نبوغاً موازياً لقدرات أهلها الأصليين، إن لم يتجاوزوهم، حيث إن معظم موجودات مكتبة اللغة ومعاجمها وفقهها وصرفها، ونحوها، من إنتاج غير العـــرب تقريـــباً، إذا تجاوزنا لغة الحضارة (العربية) يصعب أن نقول: إن الحضارة الإسلامية عربية خالصة، أو فارسية خالصة، أو شـــرقية خالصة، أو غربية خالصـــة، أو آســـيوية، أو إفريقية، أو حضـــارة الرجل الأبيض أو الأســـود، أو الذكـــر أو الأنثى، إنها حضارة هؤلاء جميعاً.. لقد ساهم فيها، ولا يزال، كل البشر، وهي مفتوحة لكل البشر، وخطابها موجَّه لكل البشـــر، ومعيارها منصوب لتقويم كل الفعل البشري، وبذلك دللت على عدم انحيازها؛ لأن قيمها من رب الناس؛ ملك الناس؛ إله الناس.

النظرية الإسلامية.. والعجز عن الإنتاج:

وقـــد تكـــون الإشكالية التي نعاني منها في الواقع الإسلامي اليوم، وخاصة في هذا المجال، تكمن في استمرار الحديث عن النظرية الإسلامية وتمـــيزها عن غيرها، والبحث في المنهج المعرفي الإسلامي، وعلى الأخص في العلـــوم الاجتماعـــية والإنســـانية، والتنظير لإسلامية المعرفة، والقيام بمقاربـــات ومقارنـــات مع (الآخر) التي غالباً ما تزال تراوح في مكانها، وكأنهـــا انتهت من وسيلة وبلورة أداة لإنتاج معرفي مأمول، وفق القيم الإســـلامية المجردة، إلى غاية بحد ذاتها، حيث لم تستطع هذه الدراسات تجـــاوز البحث في الوسيلة والمنهج والأداة إلى مرحلة الإنتاج المأمول، في

ضـــوء المـــنهج المقـــترح، في الوقت الذي نرى فيه هذا الطوفان الثقافي والمعرفي، الذي يغرقنا، وينفتح علينا من كل جانب، على الرغم من تعدد الرؤى، والمناهج، والمرجعيات، وتناقضها.

فـــإلى متى، وإلى أي مدى سوف يستمر البحث في المنهج، وإسلامية المعـــرفة، ويقصر عن الإنتاج المأمول، ويعجز عن اكتشاف مواطن الخلل والمعوقات الحقيقية، ويضع الدليل لكيفية التعامل معها ومعالجتها؟

وبالإمكـــان القول: إن الإنتاج الملفت بشكل عام، والإنتاج في مجال العلـــوم الاجتماعـــية والإنسانية بشكل خاص، متوقف في حياة المسلمين الفكرية، منذ القرن السابع تقريباً، منذ عصر «ابن خلدون» الذي أفاد منه (الآخـــر) وامتد به أكثر مما أفاد منه أهله وبنو قومه، إلا من بعض النقرات والالـــتماعـــات هنا وهناك، والتي ما نزل نبدي فيها ونعيد، وقد لا يخرج عملـــنا في مجمله عن إعادة الإنتاج؛ الأمر الذي يخشى معه أن تصنف هذه الجهـــود، عـــلى الرغم من النوايا الحسنة - والله أعلم بها- في خانة الفكر الدفـــاعي على أحسن الأحوال، لكن على صعيد آخر؛ ذلك الفكر الذي يـــتمحض في عواقـــبه ومآلاته ليكون لصالح (الآخر) الذي يملأ الساحة الفكرية بإنتاجه، ويستمر في التحكم بردود أفعالنا، على المستويات كافة.

وعـــلى الـــرغم من التحدي - وما يتطلبه من الاستجابة والموقف الدفـــاعي - بمختلف أطيافه، الذي يُفترض فيه أن يستنفر الأمة، ويجمع شتاها، ويـــجدد عزيمتها، ويعيد بناء طاقاتـــها، ويوقظ وعيها، ويبصرها

بمـــا يراد لها، لتأخذ حذرها وتستيقظ من غفلتها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ (النساء:٧١)، وأخذ الحذر والتنبه لا يعني الاعتداء: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (النساء:١٠٢)، فالوعي وأخذ الحذر لدرء الشر، وليس لصناعته؛

وعـــلى الرغم من البغــضاء البادية في الوجـــوه، وما تخفي الصدور أكــــبر، ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ (آل عمران:١١٨)؛

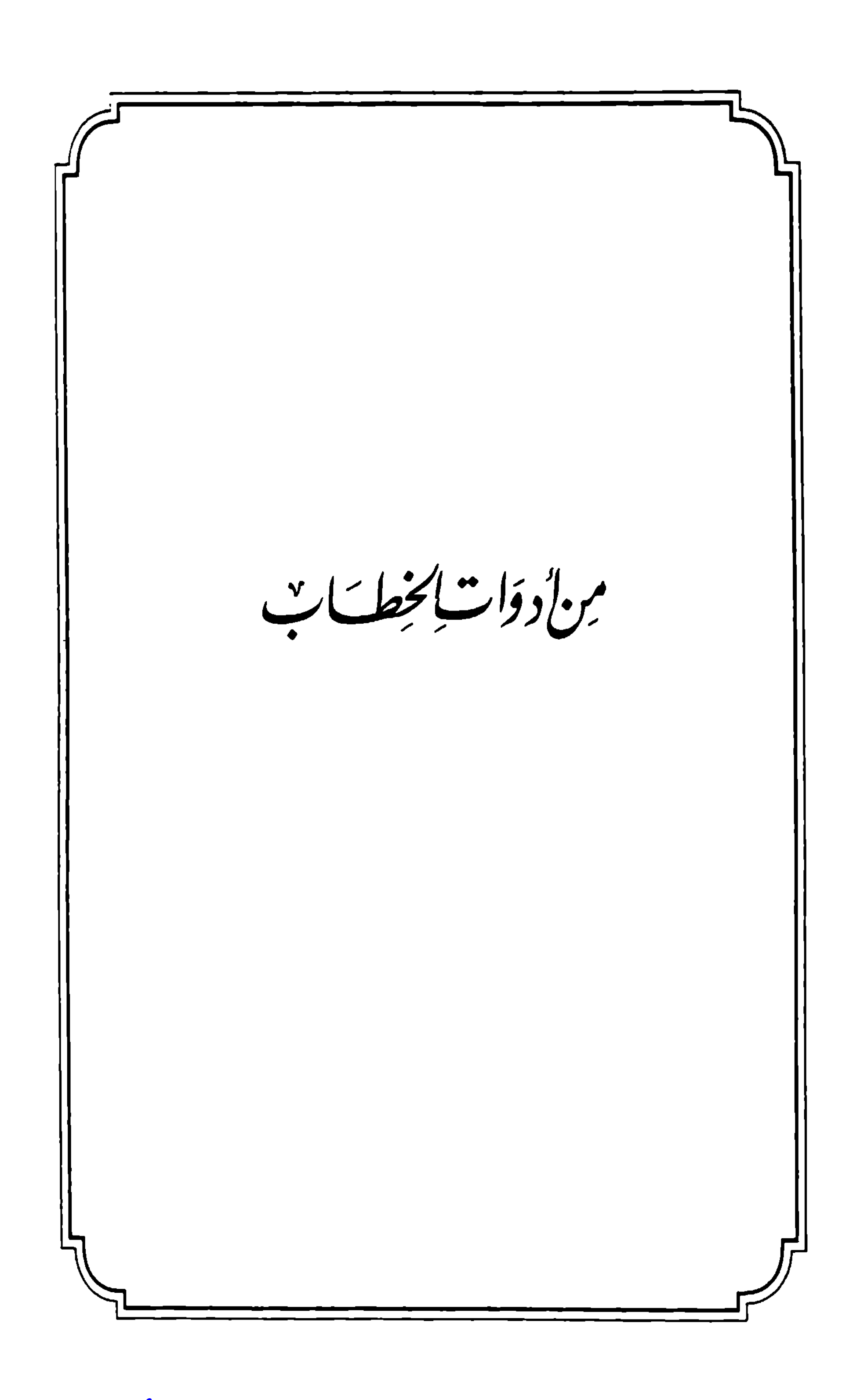
وعـــلى الـــرغم مـــن كل الفلسفات والمسوغات لما يسمى ضرورة الإعداد لتوازن الرعب، والحروب الدفاعية، والضربات الاستباقية، واتهام نوايـــا الناس، ومحاسبتهم على ما يحتمل أن يفعلوا، دون ممارسة أي فعل؛ مـــع ذلك، فإن الكثير من بني قومنا، المسكونين (بالآخر) يضنون علينا حتى بمجرد التفكير في الموقف الدفاعي، ويتهمون الكثير من أهل الحيطة والحـــذر بأن أوهام نظرية المؤامرة (الحذر واستشعار الخطر الماثل) تسيطر عليهم، وأنه لا بد لهم من التحرر من نظرية المؤامرة، مع أن الأمر يتناقض مـــع كـــل المعطـــيات، على مستوى النظرية والممارسة والواقع المحزن والمخزي، ومنطق سنن المدافعة الحضارية.

وأعتقد أن هذا الحال الذي صرنا إليه يشكل أخطر أنواع الاستلاب الـــثقافي، الذي ينتهي بصاحبه إلى إلغاء الذات، والذوبان في (الآخـــر)،

فلا يبصر إلا حضارة (الآخر)، وإنجاز (الآخر)، ومناهج (الآخر)، ولباس (الآخر)، وطعام (الآخر)، ولا يرى سبيلاً للنهوض إلا من خلال اتباع وتقليد (الآخر)، أو على أحسن الأحوال ينتهي الأمر بكثير من المثقفين إلى تشكيل ما يسمى بالطابور الخامس الثقافي، الذي لا يزيد الأمة إلا خبالاً، وتخلفاً، واستسلاماً، ويتوهم أنه يقود عملية التقدم والنهوض بتغيير لباسه وطعامه وطريقة حياته، والحقيقة أنهم لم يزيدوا على أن تحولوا من تقليد إلى تقليد أسوأ.

إن المطلوب من الأمة اليوم، من بين ما هو مطلوب منها، السعي الجاد للتتبع والرصد والكشف والنظر في منهجية الرؤية الحضارية الغربية، وأبعادها المعرفية والاجتماعية والإنسانية، في إنتاج المفكرين والفلاسفة والمثقفين وعلماء الاجتماع والحضارة؛ ابتداءً من إنتاج المستشرقين، الذي كانت الغاية من فعلهم الثقافي الاستكشاف المبكر ووضع الدليل للغزاة، على مستوى الفكر، والسياسة، والثقافة، والتمكين للاستعمار، بكل صوره وأشكاله؛ إضافة إلى تتبع الممارسة العملية، وتقديم الدليل على الفكر من واقع الفعل؛ والقيام بمقاربات ومقارنات معرفية، من منطلقات قيمية إسلامية، بما يمكن أن يشكل بصيرة للمسلم، بحيث تستبين من خلالها سبيل (الآخر).

ولله الأمر من قبل ومن بعد.



مِنْ أُدَوَاتِ الخِطَابِ[٧]

أنـــزل الله سبحانه وتعالى الكتاب على عبده ليكون للعالمين نذيراً، وجعـــل معجـــزة الرســـالة الخاتمة (القرآن) معجزة عقلية برهانية بيانية، وعرفانية في الوقت نفسه، خالدة ممتدة، مستمرة الإعجاز والإقناع، مجردة عـــن حـــدود الـــزمان والمكان، مخاطبة لعقل الإنسان، متميزة عن سائر معجزات النبوة التاريخية، التي جاءت مجسَّدَة بفعل بشري خارق للعادة، مرتـــبطة بأشـــخاص الأنبياء، مؤقتة بوجودهم، الأمر الذي يشير إلى أن النـــبوات السابقة كانت خاصـــة بأقوام بعينهم، وأزمـــان بذاتها، وأن الإيمـــان بالنبوة والمعجزة ممن لم يعاصرها ويشهدها هو نوع من الإيمان بالغيب، من بعض الوجوه، وفي ذلك حكمة بالغة.

ذلـــك أن الإنسان في تطور حياته وأطواره، منذ النبوة الأولى، وحتى الرســـالة الخاتمـــة، حيث بلغت البشرية طور الرشد العقلي، كان يتطلب معجـــزات حســـية مجسدة، ميسرة الإدراك؛ لأن الانتقال من التجسيد إلى الـــتجريد، ومـــن الذات إلى القيمة، ومن الفعل المجسد المنظور الملموس إلى المنهج المدرك، يتطلب رشداً بشرياً، وتفكراً وتفكيراً، وقدرة على الملاحظة

والمقارنـــة والمقايســـة والاستدلال والبرهان، لتجاوز الصورة إلى الحقيقة، واختـــيار الصواب للوصول للتي هي أقوم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء:٩).

فالقرآن معجزة الرســالة الخاتمة، هو معجزة عقلية فكرية برهانية بيانية - كمـــا أســـلفنا - لذلك كانت إحدى التحديات والعظات: الدعوة إلى التفكير والتفكر المجرد، والنظر، للوصول إلى الحقيقة: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ (سبأ:٤٦)، وبذلك كـــان القرآن معجزة خالدة تخاطب عقل الإنسان، أينما كان ومتى كان، ومن هنا أدرك الشاعر هذا المعنى عندما قال:

جاء النبيون بالآيات فانصرمت وجئتنا بحكيم غير منصرم

لقد أوتي الرسول عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم، وكان محلاً لتلقي القـــرآن، قـــال تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (المزمل:٥)، فكان بذلـــك إمام البيان وترجمان القرآن، وحسبنا قولة السيدة عائشة رضي الله عـــنها: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**» (أخرجه الإمام أحمد)، الذي أيده ربه بالكثير مـــن المعجـــزات الحسية المجسدة، التي تجلت لأنظار البشر، كسائر الأنبياء السابقين، إلى جانب معجزة القرآن، لتكون دليلاً على نبوته في بناء القاعدة البشرية الأولى، لكن ذلك جميعه لم يعتبر من المعجزات الخالدة الممتدة على الزمان في حياة الرسول ﷺ وبعد وفاته.

ولقد أكد عـــليه الصلاة والسلام هذا المعنى للمعجزة بقوله: «**مَا مِنَ الأَنْبيَاءِ نَبِيٌّ إلا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ**» (أخرجه البخاري).

لذلك فإن المسلمين اليوم مدعوون للاجتهاد في محاولة لاسترداد دور القيم، في الكتاب والسنة، والانطلاق منها في الحوار الحضاري والمجاهدة الفكـــرية وصـــياغة حياة الناس وإعادة تشكيلهم الثقافي، وتحقيق الخلود واستمرار العطاء، الذي يعتبر من أخص خصائص الرسالة الخاتمة والمعجزة الخـــالدة، وامتلاك القدرة على الإنتاج، مستهدين في ذلك بمنهج السيرة النـــبوية في تعاملها مع القرآن، التي جسدت قيم الوحي في واقع الناس، وأقامـــت البناء من خلال عزمات البشر، ومستصحبين للتاريخ والتراث الإسلامي بكل غناه وعبره وتجاربه.

ذلـــك أن الإشـــكالية -فيما نرى- تتمثل في عدم القدرة على تحديد موقع التأسي وكيفيات التنـــزيل القرآني على واقع الناس من خلال مسيرة الســـيرة الطويلة، مع تقلب الظروف وتطور الإمكانات المختلفة، وامتلاك القدرة على وضع الحاضر بكل مكوناته وإمكاناته في الموقع المناسب، الذي يشـــكل محل الاقتداء في هذه المرحلة وتلك الإمكانات من مسيرة السيرة، والاجـــتهاد في اختيار الحكم المناسب، والاهتداء بالسيرة لتنـــزيل الآيات القرآنـــية على واقع الناس، من خلال استطاعاتهم، وبيان حدود التكليف، وإدراك مواصفات الخطاب القرآني، وتوفر شروط محل التكليف، والقدرة

على التميز بين التنزيل المشار إليه المنوط بتوفر الاستطاعة، وبين الإسقاط الخطير للآيات والأحاديث على واقع لم تتوفر له الشروط المطلوبة للتكليف.

هذا من جانب، ومن جانب آخر نعتقد أنه لا بد من إزالة الالتباس بين اجتهادات البشر ونصوص الوحي، ذلك أن الاجتهادات مع أنها من عطاء الوحي إلا أن ذلك لا يمنحها القدسية والعصمة التي تجعلها محلاً للاقتداء والتأسي والتنزيل، وإنما تبقيها محلاً للعبرة والعظة والتجربة.. فالمشكلة تكمن في الخلط بين قول الشارع في الكتاب والسنة وفهم الشارح في التراث؛ الخلط بين الذات والقيمة، والنكوص عن التجريد، الذي يعتبر محور المعجزة القرآنية، والذي يعني أهلية الرشد، إلى التجسيد الذي يمثل مرحلة الانتكاس والطفولة العقلية.

من دلالات التجريد:

ولعل اعتماد القرآن ليكون معجزة الرسول ﷺ أو معجزة الرسالة الخاتمة دون سائر المعجزات المادية المجسدة، التي اشترك فيها الرسول ﷺ مع سائر الأنبياء من قبله، ولمّا نراها نحن، وإنما نؤمن بها إيماننا بالغيب عن طريق الخبر الصادق، يعتبر ذا دلالات متعددة في هذا الموضوع.

فالتجريد الذي تميزت به معجزة الرسالة الخاتمة (القرآن) هو نوع من التخصيب الذهني والنمو العقلي، الذي يعتبر من أعلى مراتب العقل، كما يعني - فيما يعني - القدرة الذهنية والفكرية على النظر من خلاله

إلى الأشـــياء المجسدة والواقعة، ومعايرها، وامتلاك القدرة على تقويمها.. فالتجريد قيمة ومعيار ممتد، والتجسيد تجلٍ وذات تشكل حيزاً في الزمان والمكان.. وبذلك فالتجريد خالد، محله الإنسان العاقل المكلف.

والقـــرآن، المعجزة المجردة، أول ما يخاطب العقل ويرتقي به لأعلى مراتبه، ويدعوه للاستعمال والتشغيل والتفكر، ليصل إلى القناعة، ويصبح قـــادراً على التمييز والمقايسة والاستنتاج والمقارنة، وهي من أهم أدوات الإقـــناع، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ (ســبأ:٤٦)، فالقـــناعة تـــأتي ثمرة للدليل والبرهان المتولد عن النظر.

ولم يكـــتف القرآن بمخاطبة العقل، وإنما وضع الإنسان، بكل حواسه ووعـــيه، في المناخ العلمي، ولفت نظره إلى الأشياء من حوله، ودعاه إلى الـــتأمل والنظر فيها، للوصول إلى اكتشاف السنة والقانون الذي ينتظمها؛ ولم يقتصـــر عـــلى ذلـــك، بل درّبه أيضاً على آليات وكيفيات النظر في الآيات، واستنتاج القانون، الذي هو طريق الوصول إلى الحق: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣)، فمـــيدان النظر الفسيح الذي فتحه القرآن أمام الإنسان هي آيات الآفاق والكـــون، بكل أبعاده وكل ما فيه، وآيات الأنفس بكل أغوارها وكل طواياهـــا، ومـــنحه الأبجديات لهذا النظر وهذه القراءة: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ

﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:٣١).. فقوانين الأشياء والأفلاك والعلوم الطبيعية مطــردة، وليست عبثية، وكذلك قوانين العلوم الاجتماعية والإنسانية، فهي ميادين فسيحة للنظر والاعتبار واكتشاف السنن.

ولعــل دعــوة القرآن إلى النظر في قوانين الأشياء والآفاق والأكوان كمــرحلة أولى تقــع تحت الحواس، هي السبيل لإدراك قوانين الأفكار والاجــتماع والإنسان، ومن هنا قُدِّمت رؤية آيات الآفاق في الآية على رؤيــتها في الأنفس، لتكون أحد السبل للوصول إليها؛ وهي في النهاية قوانــين واحدة منسجمة ومتوازية، مبرأة من الارتطام والاصطدام، الأمر الذي يؤكد أن مصدرها واحد، هو الحق المطلق، سبحانه وتعالى، وبذلك تصبح هذه الحقيقة: الإيمان بالله واجب الوجود من الناحية العقلية.

وبالإمكان القول هنا: بأن القرآن الذي كان البوصلة والدليل والمحرك لعقل الإنسان، كان محور هذا التراث الفكري العظيم، وهذا الإنتاج الثقافي والعــلمي والعقلي على مدى خمسة عشر قرناً؛ فكل الإنتاج المعرفي تمحور حــول القرآن، وارتكز إلى القرآن، وانطلق من مرجعية القرآن، وتحرك في جميع المجالات في مناخ القرآن، بما في ذلك الإنتاج العلمي التجريبي، الذي يــأتي ثمــرة النظرة العلمية لعالم الأشياء والأكوان، واكتشاف نواميسها.. وكــل يوم يتكشف جديد يزيد اليقين والقناعة بما يمنحه القرآن من رؤية، وكــل يــوم تدافــع سنة بسنة وقدر بقدر، وتتقدم الرحلة العلمية بالدفع القرآني لعقل الإنسان، والدفق الإنساني في حواسه ومشاعره.

بل قد نقول أيضاً: بأن الجدلية المعرفية، التي تعتبر المحرك الأساس لعمية الكشف العلمي، كانت وليدة طبيعية للمعجزة المجردة (القرآن)، وتحريضها الذهني، سواء كانت دفاعاً عن القرآن وبياناً لمعطياته أو دفعاً لحقائقه ورؤيته.. فالقرآن هو المحرك الذهني الذي ينظم المعادلات العقلية في كل الأحوال؛ ولعل هذه الجدلية هي التي أدت إلى وفرة الإنتاج الثقافي عموماً.

فالمعجزة المجردة (القرآن) لم تأت لتشل الطاقة وتوقع الإنسان في العجز عن الفعل، وتلغي العزيمة، وتعطل القدرة الذهنية، وتطفئ الفاعلية، وتؤدي إلى الاستنقاع الاجتماعي والجمود الذهني والعقلي والاستسلام، والانتهاء إلى الجبرية الذهنية، وهذا منحى جدير بالتأمل، بل كانت سبباً في استنفار العقل، وتشغيل الحواس، وتحريك القوى الفاعلة بالإنسان، وتفجير الطاقات الكامنة فيه، وبناء القناعة العقلية، والوصول إلى الصواب، ولفت النظر إلى ما يمتلك من مؤهلات انطوى فيها الكون كله:

وتحسب أنك جُرْمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالَمُ الأكبر

هذا الانطواء للعالم الأكبر في الذات البشرية يعني أن القرآن دعا الإنسان للتعرف على طاقاته الهائلة، المتجددة وغير المحدودة، التي تسع العالم الأكبر، ومن ثم ينطلق بكل ما يمتلك لتحقيق خلافته في هذا العالم، ويتعرف إلى مكنوناته، وينظر في طواياه وخباياه وما ينطوي عليه، حتى يكون قادراً على تعميره والقدرة على تسخيره.

لقـــد كانت معجزة القرآن، وما تزال إلى يوم الدين، محرضاً علمياً وثقافـــياً ومعرفياً، ولئن عجز الناس عن الإتيان بمثله فإهم لم يعجزوا عن تحقيق مدلولاته وإدراك مقاصده، وتجسيد قيمه، من خلال عزمات البشر، فهـــو معجزة استنفرت العقل البشري، لا للإتيان بمثلها وإنما للارتقاء ها وتحقيق دلالاتها في النفس والمجتمع والكون.

لقـــد كانت محاولة محاكاة هذه المعجزة، والتحرك من خلال نضحها وعطائها، والقدرة على تجسيدها، وتوليد مقاصدها، واستنباط عطائها في كـــل عصر، سبيل حياة الأمة المسلمة، وامتدادها، وصمودها، ومناعتها، وأكـــثر مـــن ذلك كانت السبيل لمعاودة نهوضها من كبواها، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الزخرف:٤٣).

لقـــد جعل القرآن التفكير مفتاح الاستدلال والعلم، وتشكيل القناعة، وإدراك حقـــائق الدين ووحيه؛ والاجتهاد عبادة مأجورة، أصاب الإنسان أم أخطـــأ.. جعل التفكير فريضة قرآنية، ورفض التعليم بالتلقين، والاعتقاد بالتقليد، واعتبر إيمان المقلد لا يجوز ولا يعفي صاحبه من المسؤولية، وجعل خـــير الناس من تعلم القرآن وعلمه، قال ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَـــهُ**» (أخرجه البخاري)، فتعلم القرآن وتعليمه هو وضع الإنســـان عـــلى الجـــادة للتحرك في تحقيق المكتسبات العلمية أو المعرفية.. والتعليم والتعلم تفكر وتدريب على التفكير، وهو غير الحفظ والاستظهار والتلقين، الذي يشيع في الواقع الإسلامي.

إصابات علل التدين:

وقد تكون الإشكالية اليوم في: أن التعامل مع القرآن لم يتحقق بالمقاصد المطلوبة ويحقق العبرة والحذر، حيث بدأت علل التدين من الأمم السابقة، التي أصيبت بالتعامل مع كتابها، تتسرب إلى الأمة الإسلامية، أولئك الذين قال الله عنهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ (البقرة:٧٨) أي إلا تلاوة وترتيلاً، قال ابن تيمية رحمه الله، عن ابن عباس وقتاده، في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أي غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم، لا يدرون ما فيها؛ و﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي تلاوة، لا يعلمون فقه الكتاب، وإنما يقتصرون على ما يتلى عليهم.. فكيف والحالة الذهنية هذه يمكن أن يحرك القرآن سواكن القلوب ورواكد العقول؟

ولولا قابلية الإصابة واحتمالاتها الكبيرة لما حذر الله منها، ذلك أن كثيراً من المسلمين اليوم يعتبرون مجرد حفظ القرآن وتحفيظه مدعاة للخيرية الواردة في الحديث: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**».. وعلى ما في الحفظ والتحفيظ من الخير والعطاء والثواب وبناء العقل واستقامة اللسان، لكن كمال الأمر لا يتحقق إلا بالتدبر والتفكر والتفكير، واسترداد الفاعلية، وتأهيل الإنسان قرآنياً لبناء الحضارة الراشدة والحياة السعيدة الطيبة، والاهتداء للتي هي أقوم، فالإنسان ليس ذاكرة فقط، ليس شريط تسجيل (أو كاسيت)، ولذلك قال بعض السلف: لقد نزل القرآن ليُعمل

بــه، فجعـــل بعـــض الناس من حفظه وتلاوته (فقط) عملاً. ولابد من الاعــتراف، مــع شــديد الأسى، أن الكثير من علل التدين تسربت إلى المسلمين عملياً، على مستوى الذات، وما ذلك إلا لتوفر القابليات وغياب الحذر المطلوب.

ولقد ساعد على ذلك الحال الخللُ في مناهج وطرائق التربية وآليات التلقي والتعامل مــع القرآن، الأمر الذي أدى للوصــول إلى الحالة التي عــبر عـــنها الرســول ﷺ «**بذهاب العلم**» حتى مع وجود الشهادات والإجازات والحفاظ.

ولعـــل فــيما يذكـــره ابن كثير، رحمه الله، عند تفسير الآية الثالثة والســتين في سورة المائدة في الجدال الذي وقع بين الرسول ﷺ وصاحبه زياد بن لبيد، مؤشراً دقيقاً على بعض ما صرنا إليه مع كتاب الله.

فقــد أخــرج الإمام أحمد، رحمه الله تعالى، عَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيد قَالَ: «ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا فَقَــالَ: **وَذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَــابِ الْعِلْمِ**، قَالَ: قُلْنَا يَــا رَسُــولَ اللَّهِ: وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، وَيُقْــرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ أُمِّ لَبِيد، إِنْ كُنْــتُ لأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْــرَءُونَ الــتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ لا يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فِيهِمَا بِشَيْءٍ ؟**» (الحديث أخرجه أحمد في مسنده، وأخرجه ابن ماجه في سننه عن زياد بن لبيد في كــتاب الفتــن، وأخرجه الترمذي في ســـننه في باب ما جاء في ذهاب العلم، وقال: حديث حسن غريب).

الاستهداف المتجدد:

وحيث إن المعجزة القرآنية تتمتع بهذه الخصائص والصفات في تغيير للواقع والهداية التي هي أقوم، لذلك فإن استهداف القرآن وعزله عن حياة الأمة مستمر بوسائل شتى، منذ الجاهلية الأولى: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ (فصلت:٢٦) إلى ما انتهت إليه الوجهة التعليمية في معظم بلاد المسلمين، ومنذ زمن، التي تبدو وكأنها ترتكز على إفساد السليقة، واستبدال اللغة، وتغيير الحرف العربي في لغات الشعوب المسلمة، لإقامة الحواجز بين الأمة وتراثها المتأتي من عطاء القرآن، وإسقاط الاهتمام بعلوم اللغة العربية، مفتاح فهم القرآن، ومن ثم إفساد التذوق، وإفساد التلقي، والقضاء على أمل التغيير والارتقاء.

وقد تكون الإشكالية أن بعض معاول الهدم تتأتى من الذات قبل (الآخر)؛ لأنها لو جاءت واضحة من (الآخر) لحققت خيراً ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ﴾ (النور:١١)، لأنها تستنفر الأمة، وتصنع التحدي، وتمكّن من الاستجابة والمواجهة.

لقد كان من الطبيعي، والطبيعي جداً، أن يتمركز الاستهداف حول القرآن للوصول بالمسلمين إلى حالة الهجر، التي حذر الله منها على لسان الرسول ﷺ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان:٣٠)، وهذا الهجر من الجرائم الفكرية الكبيرة التي أشار إليها

القرآن في الآية التالية لهذه الآية مباشرة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (الفرقان:٣١).

والهجر المقصود هنا ليس في عدم التلاوة والحفظ فقط، فهذا قد يكون قائماً ومستمراً، وإنما الهجر في غياب التدبر، وإقصاء القرآن عن حياة الأمة، والتوهين، وصناعة القابليات لمرور ثقافة وحضارة ومعايير (الآخر).

ولعل مدلول قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر:٩) يعني من بعض الوجوه، أن القرآن باق ومستمر ومحفوظ بحفظ الله، وأن الجهود لا بد أن تتركز حول التدبر والتفكر، وما يمنحه ذلك من عطاءات ثقافية وحضارية وعلمية ومعرفية تجعل من الأمة شاهدة على الناس بجدارة علم وثقافة وخلق، وليست بادعاء.

نعاود القول: بأن الله حذرنا من علل التدين، ومنها ممارسة كهانات رجال الدين، الذين حاولوا احتكار المعرفة والنطق باسم الله، واحتكار حمل الكتاب المقدس، واستغلوا الدين لتحقيق التسلط على الناس، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:١٣)، وقال: ﴿... وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ

وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ ... ﴾ (المـائدة:٤١)، وقال: ﴿ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ ... ﴾ (التوبة:٣٤).

والمتأمل في أبعاد وآفاق هذه الآيات وواقع المسلمين ينتابه ذعر وخوف شديد، على الحال التي نحن عليها، وخاصة عندما يرى علل التدين تتقدم صوب الأمة المسلمة، بل صوب بعض نخبها.

إن ظهور الكهانات في الداخل الإسلامي، بمعظم مواصفاتها، لا شك أنه أصبح يشكل علة خطيرة من علل التدين، ذلك أن رجال الدين، أو حملة الكتاب المقدس، الناطقين باسم الله في تاريخ التدين، كانوا أخطر على الأمة والحضارة والدين من أعدائه.. صحيح أنه في الإسلام لا توجد طبقة رجال دين، وإنما يوجد علماء ومتخصصون في العلوم الإسلامية، وأنهم جميعاً، مهما بلغوا، يجري عليهم الخطأ والصواب وعدم العصمة، وأن المعجزة القرآنية المجردة فصلت القيمة عن الذات، وجعلت القيمة هي المعيار للذات، كائنة من كانت، فالرجال يُعرفون بالحق ولا يُعرف الحق بالرجال، وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ.

لكن ملامح نذر الخطر المخيفة في بعض صور التدين الإسلامي، وليس في قيم الدين، أصبحت لا تخطئها العين، حيث يقترب واقع التدين في بعض جوانبه ومؤسساته عملياً من طبقة رجال الدين والأكليروس، ويبتعد عن ميدان العلم المتخصص؛ ولا نستغرب أن نرى من يعتلي المنابر ويتحدث باسم الدين من قد لا يكون له نصيب من كسب العلوم

الإســـلامية الـــلهم إلا الانتســـاب لبعض التنظيمات الإسلامية.. هذا الانتســـاب جعله يعطي نفسه حق القول في الدين والثقافة الإســـلامية والإعجاز العـــلمي، وقد يكون متخصصاً في شعب معرفية تمثل فروضاً كفائية المجتمع بأشد الحاجة إليها(!) فهجْرُه لاختصاصه وتحولـــه إلى غير اختصاصـــه يترتب عليه خلل، وآثاره خطيرة على جمـــيع الأصعـــدة، ليس أقلها تفريـــغ موقعه الذي غادره، وإتاحة الفرصة لامتداد (الآخر)، وتعطيل عطاء موضعه الذي انتهى إليه دون أن يفقهه.

فالـــتحريف الذي أشار إليه تعالى في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ في أصـــله حذف لبعض الألفاظ وإبدالها بغيرها ليتغير تبعاً لذلـــك المعنى والحكم والتكليف.. والنسيان الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ إســـقاط لبعض آيات وأحكام الكتاب بشكل متعمد، على الرغم من معرفته والتذكير به.

والخطـــورة تكمن اليوم في تطور التحريف من صورته الساذجة تلك، الـــتي قد تكون مكشوفة، وهي حذف بعض الألفاظ أو إبدالها ليتغير تبعاً لذلك المعنى والتكليف، بحيث يتاح المجال لممارسة الابتزاز والاستغلال، إلى نـــوع متقدم، وهو الخروج بالمعنى عما وضع له اللفظ (التأويل)، والتفسير والـــتأويل الـــذي يمارســـه فقهاء السلطان والاستبداد السياسي أو الظلم الاجـــتماعي لـــيوافق المطلـــوب، ويشكل مسوغاً شرعياً لممارسات غير شرعية؛ فبدل أن نكيف سلوكنا مع القرآن نكيف آيات القرآن ونطوعها

ونفسرها على هوانا لتسويغ سلوكنا! والرسول ﷺ يقول: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ**» (الأربعين النووية) لا ماجئت تبعاً لهواه.

وليس هذا فقط، وإنما محاولات التبعيض والحذف والانتقاص والانتقاء في مناهج التربية والتعليم والإعلام والوعظ والإرشاد، الأمر الذي ينتهي بنا إلى أقصى مراحل الخزي، التي حذر الله منها بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:٨٥)، وقال تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ﴾ (المائدة:٤٩).

أفلا يستدعي الأمر أن يُنظر في أسباب الخزي الذي نعاني منه؟ ألا يستدعي الأمر أن ندرك أن آية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة:٣٤)، جاءت بعد قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ...﴾ فنأخذ حذرنا، ونعتبر بغيرنا، ونحاصر الكهانات التي تتسرب إلينا؟

فالقرآن شفاء للعلل والإصابات، وتصويب للعقل والفكر، ومعالجة لفساد الرأي والجنوح، وليس للرقية فقط، والتحول به من المدائن والأحياء إلى المقابر، والقراءة المبتدعة على الأموات.

وقـد تكون المشكلة أن فساد العلماء (رجال الدين) أشد خطورة على الأمـة من فساد الحكام، لذلك قال بعض الحكماء: من فسدت بطانته... كـان كالغـاص بالماء.. شر البلاد بلاد لا أمان بها، وشر الملوك من خافه البريء.. ذلك أن فساد بعض الحكام، الذي قد يؤدي إلى انفصال السلطان عـن القـرآن، جعـل الأمـة تاريخياً منحازة إلى القرآن، وبذلك ضمان الاستمرار؛ فالأمة أقوى من الدولة، والعقيدة أبقى من السياسة؛ أما إذا فسد العلماء أو اعتلى منابرهم من غير المؤهلين، فإلى قيادة مَنْ تنحاز الأمة؟!

إن فساد العلماء، وإفسادهم، بالمال أو بالجاه أو بالسلطان أو الرئاسات – وقـد قـال بعـض العارفين: آخر ما يخرج من قلوب الأولياء حـب الرئاسة– يعتبر من أخطر علل التدين على حياة الأمة: ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ..﴾ (التوبة:٣٤)، إلا أننا مطمئنون إلى أن قيم الدين المتمثلة في معجزته الخالدة تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد.. فمعجزة الإسـلام ليست متجسدة في شخص، أو جماعة، أو هيئة، أو إنسان، أو رجل، مهما كبر، وإنما هي معجزة مجردة ممتدة على الزمان والمكان والإنسان.. ومن التجريد يتأكد الخلود والقدرة على التوليد، ومـن التجسـيد كـان التوقيت والانقضاء.. والخلود يعني تجاوز مرحلة التجسيد بالزمان والمكان والأشخاص، وامتداد المتجرد أو المجرد كقيمة حتى يوم القيامة.

من أدوات الإقناع في القرآن:

ولعـــل من المفيد هنا أن نذكر بأن القرآن الكريم في دعوته للإنسان، وإقـــناعه بالحقـــائق المطلقة، بالنسبة لرؤيته في الكون والحياة والإنسان، انتهى به إلى الإيمان بالله واجب الوجود عقلاً «وفي كل شيء له آية تدل عـــلى أنـــه واحـــد» ذلك أن عطاء هذا الإيمان هو الذي يمثل الخلاص والتحرر من كل أنواع التسلط والعبودية.

لقـــد خاطـــب القرآن قوى الوعي كلها في الإنسان؛ خاطب العقل وحرضـــــه على النظر والتفـــكير -كما أســـلفنا- ودربه على بعض المعادلات الفكرية.

واســـتخدم الأدلـــة البرهانية، وأجاب في خطابه للإنسان عن الأسئلة الكبرى المؤرقة له، والذي لا يمتلك العقل أدوات التوصل إليها والإجابة عنها.

اســـتخدم البرهان والاستدلال والمقايسة والمقارنة، وقد لا نكون بحاجـــة لإيـــراد الأمثلة، فكلمة: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾، و﴿ٱنظُرُواْ﴾، و﴿لِقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾، و﴿لِقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، واعتـــبار إيقاظ الوعي والتفكير سبيل الإيمان، أكثر من أن تحصى في القرآن.

كما استخدم القصة لتحقيق العبرة: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ (يوسف:١١١).

واستخدم التاريخ، ليلفت النظر إلى سنن السقوط والنهوض واطرادها.

وملَّك الإنسان حقائق علمية يقينية، كما ملكه القابليات والأدوات للنظر، وقال له: انطلق في الأرض وانظر: ﴿ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٧).

واستخدم المثل، وخاطب النفس من الداخل وعرض تقلباتها المتنوعة، وأثار الخواطر وسبر أغوارها، وجيش المشاعر، وحرك العاطفة، ونمى الأحاسيس، كما خاطب الإنسان بالمصير، وتحدى بالعواقب والمآلات.

واستخدم الحوار والمجادلة، وقدم بعض الحقائق العلمية، ووضع الإنسان على الجادة، وأعطاه دليل رحلة البحث العلمي ومفاتحه، وجعل ذلك تكليفاً ومسؤولية.

كما استشرف له الماضي، لتشكيل ذاكرته وتحقيق التراكم المعرفي المطلوب لتنميته، قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ (الشورى:١٣)، ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ ﴾ (الحج:٧٨).

كما قدم رؤية للمستقبل، وأخبر عن المصير وعالم الغيب، وحكى قصة أطوار الحياة، التي تشكل حقائق يعيشها الإنسان ويلمسها ويشاهدها.

وعلى العموم، نستطيع أن نقول: قدم القرآن معادلات للحياة، وغطى جميع مساحاتها، وأجاب عن أسئلة الإنسان، وأحسن بناءه، وناط

بــه صناعة العمران وتحقيق الاستخلاف.. فالله خلق الإنسان، وأحسن خلقه وتقويمه، والإنسان أبدع أشياءه وكشف قوانين المادة التي مكنته من التقدم العلمي.

ولم يكن ما قدمه القرآن رؤية خيالية نظرية، ولا فلسفة توهيمية هائمة، ولا معــرفة باردة عاجزة عن الفعل والتحقق في واقع الناس، وإنما معجزته الحقيقية تمثلت في أن رؤيته وقيمه وفلسفته تجسدت في حياة الناس.

وحسبنا أن نقول: بأنه لا أدل على نجاح استراتيجية القرآن وأساليبه المتمــيزة في الإقناع من أن الأمة المسلمة تشكلت من خلاله، وتماسكت مــن خــلال القرآن، ونهضت من كبواتها من خلاله، وقدمت حضارة وثقافة بنضح من القرآن.

وأنه على الرغم من التقدم العلمي والمعرفي، مع ذلك لم تسجل إصابة واحــدة على معرفة الوحــي في القرآن والســنة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ (المســتقبل) وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ (الماضــي)﴾ (فصــلت:٤٢)، لكــن تــراكم الإصابات لعالم المسلمين اليوم بسبب هجرهم للقرآن.

لذلــك فإنــه لا خــيار أمام المسلم اليوم من الاجتهاد في استيعاب أســاليب القرآن في الإقناع، واستصحاب هذه الأدوات والأساليب في تعامله مع الثقافات الوافدة في هذه الحقبة الخطيرة من حياة البشرية، حقبة

حوار الحضارات أو صراع الحضارات، والسعي لفرض أنماط ثقافية باسم العولمة والنظام العالمي الجديد، ولا أدل على اعتماد القرآن سبيل الإقناع مـــن أن شـــعاره الكبير كان وما يزال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾، والتذكير بأهمية المجاهدة بالقرآن، استجابة لقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ (الفـــرقان:٥٢) فالجهاد الكبير هو جهاد الأفكار، وعلى الأخص في هذا العصر، الذي يعتبر الإعلام والحوار وصراع الأفكار والحضارات والمدافعة الثقافية من أمضى أسلحته وأخطرها.

لذلـــك لا بـــد مـــن التبصـــر بمنهج القرآن، والتعامل معه بأدوات صحيحة، والتحقق بوسائله، أو استراتيجيته في الإقناع وتحصيل الإيمان، ومعرفة كيفية الاستمساك به، لتجاوز العجز والفقر الثقافي وهدم التوهم، الـــذي يـــأتي عادة ثمرة للعجز والإحباط، بأن التشدد والإكراه والعنف والغلو هو الذي يقنع الإنسان ويحقق نقله من الكفر إلى الإيمان.

ذلـــك أن مـــن المؤســـف التوهم بأن التشدد والعنف يمكن أن يحقق المطلوب ويقنع الناس بالإسلام، على الرغم مما جاء به القرآن من استراتيجية للإقناع وآليه لبناء ثقافة وقناعة الإنسان، وتجسد ذلك في تاريخنا الثقافي في جملـــته، الذي يعتبر تاريخ عطاء القرآن، وأن القيمة الأساسية في ديننا التي مكنـــته ومكنت له: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة:٢٥٦)، حيث كانت قيادة الإنسان من خلال قناعاته، ومع ذلك فإن بعضنا ما يزال يعتقد أن

السيف أصدق إنباء من الكتب، ويفوته قول الشاعر:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المكان الثاني

فيدخل الكثير من المعارك الغلط باسم الدين، ويهدر الكثير من الطاقة باسم الجهاد، ويخطئ اختيار الوسيلة، ويسيئ للأمور، ويفتقد الحكمة في النظر.

وقد نقول هنا: بأن الكلام عن أساليب القرآن، ودوره في تحقيق الإقناع، هي من المسلمات، والأدلة على ذلك أكثر من أن يحاط بها على مستوى الفكر والفعل بحيث لم تعد تدع استزادة لمستزيد، ولا أدل على ذلك مما أنتجه القرآن من إنسان وحضارة وثقافة، وإن شئت فقل: أمة، بكل مقوماتها، لكن المشكلة الأساس اليوم، التي تستدعي الكثير من النظر والبحث والمعالجة، تتمثل في السؤال الكبير: إذا كان القرآن الكريم بهذا العطاء الخالد، والقدرة الخارقة على الإقناع (المعجزة العقلية الثقافية الخالدة) فلماذا يعجز المسلمون أن يكونوا في مستوى قرآنهم، على مختلف الأصعدة؟ ولماذا يبقى واقعهم غير مقنع، إن لم يكن منفراً، بل وغوغائياً في بعض جوانبه؟

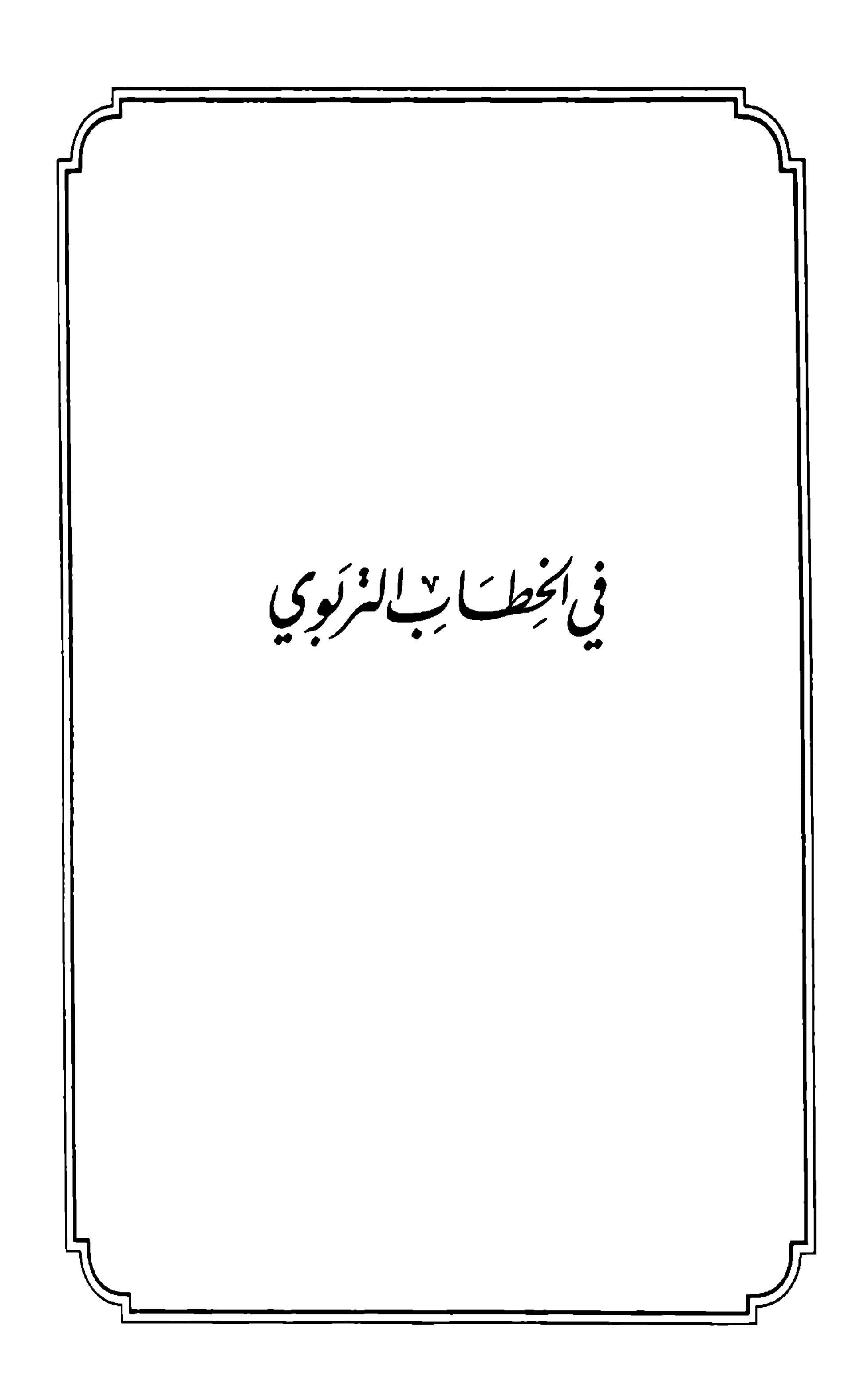
وكم يترجى الإنسان ويتمنى، أن الدراسات والجهود التي اجتمعت على بيان عظمة القرآن يتحول بعضها ليتبين أين الخلل، وكيف نعيد التواصل مع القرآن، ونفتش عن أنفسنا، وعلاج إصاباتنا في القرآن؟ ونحن نعلم جميعاً أن القرآن الكريم خالد قادر على العطاء إلى يوم الدين،

وأن مـــن أبـــرز خصائصه أنه أطلق العقل من عقاله، وأعاد إليه وظيفته، وارتقـــى بـــه إلى آفاق من الكشف والكسب المعرفي، وأكد له أن رحلة البحـــث والكشـــف العلمي لن تتوقف:﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (فصلت:٥٣)، إلى يوم القيامة.

فالقـــرآن بطبيعته حمَّال أوجه، كما قال سيدنا علي رضي الله عنه، وهذا يمنح طاقة هائلة وخصبة للنظر والرؤية، ويدفع إلى التعددية والتنوع وإغناء الرحلة العلمية، ويفتح الأبواب كلها للنظر في الآفاق والأنفس؛ وكلٌ يـــرتقي حسب قدراته العقلية: ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد:١٧)؛ ولكلٍ من الثواب والأجر حسب كسبه المعرفي.

هـــذه الآفاق الفسيحة لا تحدها حدود زمانية أو مكانية أو بشرية، ويكفـــي أن نتأمل قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ (الكهـــــف:١٠٩)، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ (لقمـــان:٢٧)، لـــندرك الأبعـــاد والمساحات والفضـــاءات، التي تنتظرنا، والتي يتحرك فيها العقل البشري من خلال عطاء معرفة الوحي، بعيداً عن الانسداد والتقييد والانحباس والمحاصرة.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.



في الخطاب التربوي

جعـــل الله سبحانه وتعالى، حين بعث في الأميين رسولاً منهم، يتلو علـــيهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين؛ جعل بذلك البعثَ مهمةَ النبوة الأولى إخراجَ الأمة من الأمية.. وبيَّن أن هذا الإخـــراج لا يتحقـــق بالأمنيات والرغائب فقط، وإنمـــا بالتربـــية والتعليم واكتساب الخبرة والمعرفة، هذه سنة جارية على تـــاريخ النـــبوة الطويل، يقول تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (النساء:١٢٣).

وحتى معرفة القراءة وحفظ الأحكام دون فقهها والعمل بها تعتبر من بعض الوجوه أماني، كما أكد ذلك قوله تعالى حكاية عن أهل الكتاب، لـــيكون ذلـــك عبرة لأهل الرسالة الخاتمة، فلا يقعون بعلل التدين، التي لحقت بالأمم السابقة: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ (البقرة:٧٨).

ذلك أن عملية إخراج الأمة ونهوضها وبنائها الحضاري، ومن ثـــمّ تحقيق شهودها الحضاري، استجابة لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً

﴿وَسَطًا لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٤٣)، التي هي مهمة النبوات الأولى والآخرة، تتطلب الكثير من الإدراك والفهم والوضوح والإفادة من التجارب، على مستوى الذات و(الآخر)، والقدرة على استلهام القيم ووضع الآليات والبرامج لكيفية تنزيلها على واقع الناس.

فالسبيل الوحيد والأوحد لإخراج الأمة، أو لمعاودة نهوضها وإخراجها، هو الثقافة والتربية والتعليم، واكتساب المهارات المعرفية والسلوكية والنفسية، فالله تعالى يقول: ﴿... يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ...﴾ (الجمعة:٢).

فالتلاوة والخطاب العام والجماهيري، والنقل الثقافي، مهما طرح من الآيات والدلائل والبراهين، وحقق من القناعات، فلا يغني في الحقيقة، سواء بالنسبة لطبيعته أو بالنسبة لشرائح التلقي عن التربية للشخصية والنفسية، وبناء العقلية، وتنمية المشاعر، وصقل المواهب، وتزكية النفس، وتأصيل دوافع الخير، والحيلولة دون نوازع الشر، وإكساب المهارات، والتدريب على الوظائف التي تنمي العقل من التفكير والمقارنة والقياس والاستنتاج والاستقراء، والتدريب والتعليم على المعاني الخيرة لتصبح سجية وطبعاً، والارتقاء والنمو في ضوء منهج نضيج ومدروس ومتدرج، يأخذ في اعتباره العمر العقلي، والكوامن النفسية، والقدرة الذهنية، والمناخ الثقافي، والواقع الاجتماعي للمتلقي.

ويـأتي في مقدمة ذلك جميعه امتلاك المفتاح، وهو هنا معرفة الكتابة والكتاب (القرآن)، الذي يشكل المرجعية، واكتساب الحكمة التي تعني - فيما تعني- التوازن وضبط النسب ووضع الأمور في مواضعها؛ لأن أي خلل في ضبط النسب أو عدم الإحاطة بالمتلقي وظروفه وحاجاته في كل مرحلة عمرية يفسح المجال لنوازع الشر أن تغتال الشخصية: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

إن هدف التعليم والتربية في نهاية المطاف: الإنقاذ من الضلال، وتنمية خصائص الإنسان، وإلحاق الرحمة به: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢)؛ كما أن الغاية من ابتعاث الرسول ﷺ الرحمة بالعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، لذلك كان ﷺ يقول: «**إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**» (أخرجه مسلم)، وكان من دعائه المأثور: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا**» (أخرجه مسلم).

فالعنت، والتعنت، والإرهاق، والشدة، والمشقة، والتنطع، والتشدد، والإكراه، والعجز عن تيسير المعلومة وإيصالها، وتقويمها، واختبار اكتسابها، وتحويلها إلى خبرة علمية ومهارة معرفية، تنمي العقل، وتذكي الطاقة، وترتقي بالخصائص، وتعود على التفكير بالنمو والكثير من

الوسائل بالتطور والتطوير، تتحول إلى اندفاعات من الإخلاص والحماس ويجانبها الإدراك والاختصاص، وتنتهي إلى الإعاقة، وتكسب العجز، وتنمي التخلف، وتكرس الواقع الأليم: «**إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا وَلا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**» وفي رواية: «...**إِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا**» (أخرجه ابن ماجه) وكأنه لخص مهمة النبوة الأساس في حياة الإنسان.. وهي مهمة تتطلب من أتباع النبوة اليوم العمل الجاد لمعاودة إخراج الأمة، واستلهام القيم الضابطة للمسيرة، التي جاء بها الوحي، وتحريك الاجتهاد وإعمال العقل في وضع البرامج الملائمة والمدروسة لإعادة بناء النخبة، الطائفة القائمة على الحق التي لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله وهي على ذلك: «**لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ**» (أخرجه مسلم)، التي تحقق خلود القيم الإسلامية والتدليل على قدرتها على الإنتاج في كل عصر وظرف وحال، التي تتمثل الإسلام في حياتها وعلاقاتها وتشكل خميرة النهوض والتجدد الفكري.

ذلك أن الأزمة - فيما نرى- إنما هي أزمة نخبة قادرة على القيادة وإثارة الاقتداء وامتلاك القدرة على الاجتهاد ووضع الأوعية الشرعية لحركة الأمة، بعيداً عن الحماس وسوء التقدير للاستطاعات والممكنات، الأمر الذي يؤدي إلى الكثير عن المعارك الغلط، وهدر الطاقات، وتقديم التضحيات في غير زمانها ومكانها، والعجز عن تحقيق الأهداف وقطف الثمرات.

نعـــود إلى القول: بأن الأزمة هي في حقيقتها أزمة نخبة وليست أزمة أمـــة، لأن الأمـــة في كل الظروف والأحوال والمتغيرات أثبتت انتماءها للإســـلام، وولاءها لقيمه، وانحيازها لنصرته، وتقديم التضحيات الكبيرة الـــتي قد ينتسب بعضها إلى عصور الإسلام الأولى، وهو المحرك الوحيد لاستجابتها والمكون الأساس لثقافتها، حتى أننا نستطيع القول: بأن الأمة لشدة حرصـــها وولائها قد تنحـــاز إلى من يرفع شعار الإســـلام، حتى ولو لم يكن في مستواه.

ولعلـــنا نقول هنا: بأن الخلل إنما يكمن أساساً في تربية وبناء النخبة، وأن الكـــثير ممـــن ارتقـــى منابر النخبة في التوجيه والقيادة، بما يمتلك من الحنجرة السميكة، والصوت المرتفع، والقـــدرة على إثارة الحماس، وإتقان الخطـــاب، أو الخطب القائمة على إثارة المشاعر والحماس، على حساب إذكـــاء الـــتفكير، كان سبباً في الأزمات المتلاحقة وليس وسيلة للحلول الغائبة حتى ولو ادّعاها.

وقـــد تكون المشكلة اليوم: التوهم بأن النخبة، أو أهل الحل والعقد، هـــم أهـــل الأصوات والضجيج ومنابر الخطابة، وأن القدرة على إثارة الحمـــاس وملء النفس بالانفعال هي مؤهلات النخبة والريادة، بعيداً عن أهـــل الخبرة والاخـــتصاص في ما يتطلبه بناء الحياة بكل جوانبها، حتى ولـــو ادّعى الخطباء المعرفة بكل شيء، والإفتاء بكل شيء، وقد لا نغالي

إذا قلنا: بأننا هُزمنا بذهنية بعض الخطباء، وانتصر أعداؤنا بالخبراء، ذلك أن بـــروز الخطـــباء، الذين لا خبرة لهم إلا بالأصوات، وغياب الفقهاء والخبراء وأهل الاختصاص هو الذي يمثل إشكالية النهوض.

متطلبات التحويل الفكري:

ولا بـــد لـــنا أن نعترف هنا أن عملية التحويل الفكري والتشكيل الثقافي، لإعادة بناء النخبة، ومعاودة إخراج الأمة من جديد، عملية شاقة وعسيرة، ومن الصناعات الثقيلة حقيقة.

فهـــي تتطلب تخصصات ومهارات في شعب العلوم الإنسانية جميعاً، إن لم نقل علم الإنسان بشكل عام، ولا يتسع لها عمر إنسان، ولا عقله، ولا علمه، وإنما هي بطبعها عمل مؤسسي متكامل مسبوق برؤية تتحقق بالمرجعـــية الشرعية، أو رؤية شرعية، إضافة إلى رؤية فقهيه فكرية ثقافية قادرة على استلهام التجربة الإسلامية التاريخية، وقادرة أيضاً على تنـــزيل القـــيم في الكـــتاب والســـنة على واقع الناس، من خلال استطاعاتهم، ومدركة للمتغيرات والنوازل.

كمـــا تتطلب التحقق بالمنهجية السننية لحركة الحياة والأحياء، من خـــلال تخصصات مـــتنوعة مســـتوعبة لمرحـــلة القدوة، حقبة السيرة، ومـــا تميزت به من تسديد وتصويب الوحي، ومرحلة الخلافة الراشدة،

حيث انقطاع الوحي وبدء التعامل مع الأحكام باجتهادات البشر. وتحقيق خلود القيم، وتعدية الرؤية إلى النوازل الجديدة، واحتمالات الخطأ والصواب، بعيداً عن تأييد الوحي وتسديده وتصويبه.

كما تتطلب امتلاك القدرة على وضع الواقع بكل استطاعاته ومكوناته وحالاته في الموقع المناسب من مسيرة السيرة والخلافة الراشدة، ليشكل هذا الموقع مجال الاقتداء بعد التحقق بالرؤية الشاملة، ابتداءً من الخطوات الأولى للنبوة: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾، وانتهاءً بمرحلة الكمال والاكتمال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ (المائدة:٣)، ذلك أن الفوضى في التعامل مع الأحكام، والعبث بعملية الاقتداء، وسوء التقدير في اختيار موقع الاقتداء، مُوقع بمضاعفات خطيرة، وضلال في السعي، ونحن نحسب أننا نحسن صنعاً.

ونؤكد هنا أهمية التنبه إلى أن ما ورد في الكتاب والسنة، من معرفة الوحي، يشكل قيماً ومرجعية ومعياراً ومبادئ عامة، لضبط المسيرة البشرية وهدايتها، وتقويم فعلها في كل زمان ومكان؛ وأن وضع الخطط والبرامج والمناهج التربوية والدعوية، بحسب ظروف الزمان والمكان، في ضوء هداية القيم، منوط بالعقل والاجتهاد؛ وأن هذه البرامج والاجتهادات يجري عليها الصواب والخطأ، والمعرفة والإنكار، والقبول والرد، وأنها اجتهاد في تنزيل قيم الإسلام على واقع الناس، في زمان

معـــين ومشكلات معينة، وبالتالي فليست قيماً معصومة مقدسة خالدة محظور نقضها أو نقدها أو حتى تركها وتجاوزها.

فالمقياس هو قيم الكتاب والسنة، والإشكالية اليوم هي في الخلط بين فهم واجتهاد وكلام الشارح وبين قيم الشارع، والتباس الذات بالقيمة، وتحـــول العصمة من القيم والمبادئ إلى الأشخاص والاجتهادات، حيث يســـود جـــو من الإرهاب الفكري، الإرهاب المقدس، الذي يحرِّم النقد والمراجعة والمقايسة والمقارنة والمناقضة.

إضـــافة إلى أن الجهود الفكرية والفقهية والاجتهادية والأكاديمية، في معظمهـــا، انصرفت إلى إثبات صحة النص وتحقيق النص والبرهنة على عظمـــة النص... إلخ، ولم تبذل إلا الجهود القليلة القليلة في الاجتهاد في كيفـــية إعمال النص في واقع الناس، وما ترك هذا من مخاطر عزل القيم الإســـلامية عـــن واقـــع الناس الحائر، وعلى أحسن الأحوال فإن الفقه والاجتهاد في معظمه اليوم تراجع إلى السير خلف المجتمعات والحكم على فعلها، وتنازل عن الريادة والسير أمام المجتمعات وبيان طريقها المستقيم، التي عليها أن تســـلكه حتى لا تضل ولا تشقى.

لقـــد تحول الفقه والاجتهاد من فقه مقاصد وغايات إلى فقه مخارج وكيفـــيات ومـــبررات، إن لم نقل فقه إيجاد المسوغات والحيل الشرعية لأفعال الناس المشتبهة.

إشكالية الأدوات:

وقد تكون إشكالية النهوض كامنة في كيفيات وأدوات النظر إلى قيم الكتاب والسنة، واستلهامها في التعامل مع الواقع ورؤية المستقبل، وكيفية استصحاب التجربة الحضارية التاريخية، التي جاءت استجابة عملية وسلوكة لهذه النصوص أو هذه القيم.

فالمشكلة فكرية ذهنية ثقافية تربوية، قبل أي شيء آخر، وما نراه في الواقع ما هو إلا انعكاس وتجل لهذه الذهنية، وما لم نحدد مواطن الخلل الكامن في الذهنية الإسلامية اليوم، والمنهج التربوي، وأدوات التشكيل الثقافي، وندرك أن المشكلة ليست مشكلة قيم ولا مشكلة غياب الأنموذج، الذي جسد هذه القيم في حياة الناس، ولا مشكلة منهج ومرجعية، ولا مشكلة التبحر في الأحكام الفقهية التشريعية، إنما المشكلة هي في وسائل التعامل مع هذا المنهج.

فالقرآن هو القرآن، الذي أنتج جيلاً بل أجيالاً؛ وهو محفوظ كما أُنزل، والجهود والعزمات التي بذلت في حفظه لا يطاولها شك، بل لعلنا نقول: إن معظم الجهود العقلية والفكرية والعملية والعلمية تمحورت تاريخياً حول حماية النص ونقله حتى وصلنا كما نزل.. فلماذا لا ينتج الآن؟ ولماذا لا يتم التحويل والتغيير، ومنهج ذلك - القرآن والبيان النبوي- موجود، ومع ذلك فحالة العقم، وحالة العجز والاستنقاع الحضاري، تحيط بنا من كل جانب؟

المشكلة إذن في أدوات التوصيل وكيفيات التعامل.. المشكلة في عدم تربية العقل، الذي نيط به الاجتهاد والتنـــزيل على الواقع بحسب ظروف الـــزمان والمكان.. وكم نحن بحاجة اليوم، أكثر من أي وقت مضى، أن نعترف بفشلنا، أو بفشل أدواتنا في التعامل مع قيمنا، في المجالات الفكرية والفقهـــية والـــتربوية والثقافـــية، والواقع شاهد إدانة، ونعيد النظر بهذه الأدوات، الـــتي لا قدســـية لهـــا، ونفتح الباب على مصراعيه للاجتهاد الفكـــري والحوار والمناقشة؛ وأن ندرك ونعتقد، بحيث يصبح ذلك ثقافة واعتقاداً، بأن زمن الرجل الملحمة الذي يفتي في كل شيء انتهى، وأصبح الـــذي يدعي المعـــرفة في كل شـــيء هـــو في الحقيقة لا يعرف شيئاً، حـــتى ولو حـــفظ الأحـــكام الشرعية أو حـــفظ النصوص الواردة في الكتاب والسنة.

فالمشـــكلة ليســـت مشكلة حفظ، ولا مشكلة فقر في القيم، ولا في غـــياب المـــنهج والأنمـــوذج – كما أسلفنا– وإنما المشكلة في الاجتهاد وكيفـــيات الـــتعامل والتنـــزيل على الواقع، بحسب استطاعاته.. وهذه الآليات والكيفيات لا تأتي بالادعاء والأمنيات، كما هو حالنا، وإنما تأتي بالتخصـــص في شعب المعرفة، وتقسيم العمل، والإحاطة بعلم الأشياء، حتى لا ننتهي إلى الكذب الفكري والثقافي على أنفسنا وعلى المسلمين، الذيـــن نوهمهم بأننا نمتلك مفاتيح الأشياء جميعاً، وأن المشكلة كامنة في

(الآخر)، في خارجنا، وبذلك يصدق فينا قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ (يونس:٣٩)، والإحاطة بالعلم تعني التخصص في شعبه: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطـــر:١٤)، والخبرة فكر وتجربة، أو فكر وفعل وتمرس.

حتى في مجالات الاجتهاد، التي نتعامل فيها مع القرآن، نجد أن رؤيتنا حســيرة وناقصـــة ومختزلة وجزئية وما إلى ذلك، حيث اقتصر اجتهادنا غالــباً، في إطار القيم، على استنباط الحكم التشريعي، واقتصرنا في النظر والاجـــتهاد على آيات الأحكام الشرعية وأحاديث الأحكام، ومساحتها لا تتجاوز خمسمائة آية، على أحسن الأحوال، وقد أعمل بعضهم فقهه وعقلـــه في النســـخ حتى المسخ، وتركنا ما رواء ذلك من القرآن للتلاوة والتـــبرك، فخرجـــنا من المجتمع بكل فضاءاته وآفاقه إلى بعض زواياه، وخرجنا من الحياة بمعظم جوانبها، وانحسرنا عن مجالاتها والانفعال بالرؤية القرآنـــية في التعامل معها.. هذا عدا عن التكرار والنقل عن الأقدمين، وعدم القدرة على تجاوز المثال وتعدية الرؤية إلى مثال آخر، حتى في المجال الفقهـــي التشـــريعي، وكأن الآية الخالدة إنما جاءت لمعالجة حالة واحدة متفردة لا تتكرر، والأفقه عندنا هو الأكثر حفظاً للأحكام والأقدر على نقـــلها، فـــنحن اليوم حملة فقه في الغالب، ولسنا فقهاء؛ فالذاكرة هي المعيار، والذكاء والتفكر والاجتهاد والاستنتاج لمشكلات الحياة قد يكون

غائبـاً تمامـاً، والرسول ﷺ يقول: «... **رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**» (أخرجه الترمذي).

ونحن هنا لا نبخس الاجتهاد في مجال الحكم الشرعي قيمته ودوره، لكـن المشكلة في عدم تجاوزه إلى فقه الحياة، الفقه الحضاري، فقه السنن لحـركة المجتمعات، فقه السقوط والنهوض للحضارات، الفقه السياسي، الفقـه التربوي، الفقه الاجتماعي، فقه الحركة التاريخية، الفقه التنموي، الفقـه البيـئي، فقـه العلاقات الدولية، الفقه الإداري، فقه التعامل مع الأزمات الإنسانية، الفقه الإعلامي، فقه العواقب والتداعيات من خلال إبصار المقدمات، فقه الواقع، فقه الاستطاعات...

الاستطاعة مناط التكليف:

وقـد يكـون الخلـل في عـدم الإدراك الكامل للمعادلة الثقافية للموضـوع، ذلـك أنـه من المعروف أن الإنسان هو محل الحكم، وأن استطاعته هي التي تقتضي التكليف، وأنه لا قيمة للحكم إذا افتقدنا المحل (الإنسان) أو افتقدنا الاستطاعة مناط التكليف، فالتبحر والامتداد بتوليد الأحكام التشريعية وعدم التوزاي أو السبق في بناء الإنسان، محل الحكم، وبـناء استطاعته مناط التكليف، يفقد العمل والاجتهاد قيمته وجدواه، ويصبح عملاً في فراغ.

لذلـك نقول: إن فقه بناء الإنسان، أو تنشئة الإنسان السوي، محل الحكم والخطاب، أو الفقه التربوي، هو أولاً وثانياً وثالثاً.

فلقد بقي الخطاب القرآني والفعل التربوي النبوي ثلاثة عشر عاماً في مكة يتمحور حول بناء الإنسان، ولم تكن مساحة الأحكام في مكة تكاد تذكر، فلما توفر الإنسان جاءت الحاجة إلى وضع الأوعية الشرعية لحركته، فكان الخطاب المدني خطاب الأحكام، إضافة إلى استمرار البناء التربوي.

والتربية والتنشئة والتزكية وبناء الإنسان هي مهمة الرسل، قبل تقرير الأحكام، ذلك أن الأحكام في مجملها إنما شرعت لحماية الإنسان، وحماية المجتمع، وليس لإقامته وبنائه، على ما فيها من آثار تربوية وثقافية، لذلك نقول: لعل من الملفت حقاً أن يبدأ الوحي بالتعليم والتربية والتزكية، حيث أعطاها ما تستحق، واختبر نتائجها قبل البدء في تقرير الأحكام.

ذلك أن تلقي الوحي، وكيفية التعامل مع معطياته، والالتزام بأحكامه، يتطلب مؤهلات وخصائص وصفات وأدوات لا يمكن الوصول إليها والحصول عليها إلا من خلال التعليم والتربية، انطلاقاً من رصيد الفطرة وتطوير القابليات المركوزة في الإنسان، ولا يمكن بحال من الأحوال تجاوز التعليم والتربية في عملية التأهيل.. ولا شك أن القيم الإسلامية في الكتاب والسنة تشكل منطلقات ومرجعيات وضوابط لمسيرة التعليم والتربية، فبالقيم الإسلامية نؤهل الإنسان، وبالقيم

الإســـلامية يـــتأهل الإنسان لكيفية التعامل معها، والالتزام بأحكامها، وبدون تأهيل محل تنـــزيل الأحكام (الإنسان)، بالتعليم والتربية، فسوف يحصـــل الكثير من المجازفات والعبث بالأحكام الشرعية، وتنـــزيلها على غـــير محالهـــا، والخلـــط في آليات وكيفيات تطبيق الشريعة، أو تنـــزيل الإسلام على واقع الناس وحسن التعامل معهم، من حيث هم.

ذلـــك أن القـــيم الإسلامية تبدأ مع الناس من الحالة التي هم عليها، وترتقي بهم من خلال تطوير استطاعاتهم، بوضع البرامج والخطط الملائمة لكـــل مرحلة من مراحل الترقي، وما يناسبها من الوســـائل والأحكام، وهذا لا يعني الانتقاء من الأحكام أو القيم الشرعية، ولا تقطيع الصورة وإنما يعني حسن التقـــدير للاســـتطاعات وما يناط بـــها من تكاليف، وما تتطلب من أحكام في كل حالة ومرحلة.

ذلك أنه إذا فُقدت الاستطاعة لا يرد التكليف أصلاً، وقد أشرنا في كتاباتـــنا الســـابقة إلى قضـــية على قدر كبير من الأهمية في التعامل مع الأحكام والقيم الإسلامية، وهي أن المسلم، فرداً وجماعة، دولة وأمة، إذا بـــذل اســـتطاعته في تنفيذ الأحكام الموازية لهذه الاستطاعة والمنوطة بها، حيـــث إنه لا تكليف بدون اســـتطاعة، مع إيـــمانه بالقيم الإســـلامية مـــن قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ فقد طبق الإسلام الكامل بالنسبة لاستطاعته، وخرج من عهدة التكليف،

ولــو لم يســتكمل جمــيع فروع الإسلام وأحكامه، إضافة إلى أن هذه الأحكام تتطور صعوداً وشمولاً كلما ارتقت الاستطاعة وتعاظمت، وتنحسر وتتناقص كلما تدنت الاستطاعة وهبطت، وفي كلتا الحالتين فإن المسلم طَبق الإسلام المطلوب إليه والمخاطب به في حــالته الاستطاعية، التي هو عليها. فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، مع العلم أن الإسلام بكل تشريعاته ومطالبه لا يخرج عن استطاعة الإنسان، ولذلك فيمكن للإنسان أن يطور استطاعته، ويترقى ليصبح بإمكانه الوصول إلى حالة الكمال والاستكمال.

ولا بد أن نذكر هنا أيضاً، بأن الأحكام الشرعية المتنوعة في مجملها ومجموعهــا، إنمــا نزلــت أو شرعت، لمعالجة قضايا وحالات الإنسان المتــنوعــة، وأن لكل حالة حكمها، ولا يمكن أن يدعي أحد على عقل أو على فقه أن كل حكم يصلح لكل حالة ولكل استطاعة، وأن التنفيذ للأحكام، مهما كانت، منوط بكل إنسان، فرداً أو سلطة، فالأحكام من جانــب كالأدوية، كلها أدوية، لكن لكل دواء داؤه، وبالتالي فلا يصلح كــل دواء لكــل داء، ذلــك أن الخطأ في تنــزيل الدواء على داء قتلٌ للمريض، ولو كان ما يتناوله يوسم بالدواء، وهكذا الأحكام الشرعية..

هــذا مــن جانــب، ومن جانب آخر فإن بعض الأحكام، بأصل وضــعها، أو تنــزيلها، منوطة بالسلطة المسلمة، أو بالدولة؛ لأنها تمتلك مــن السلطات والاستطاعات ما يمكنها من إنفاذ ذلك، كتطبيق الحدود وتنفــيذ العقوبــات، وإبرام المعاهدات، وإعلان الحرب والصلح والهدنة

والجهاد.. وأن نصيب الفرد أو تكليفه من ذلك يتحدد بالعمل على الوصول إلى بناء سلطة مؤمنة بهذه الأحكام، تعمل على إنفاذها، وليس من مسؤوليته أو تكليفه، وهو فاقد للاستطاعة، مناط الحكم، أن يقيم نفسه مقام الدولة أو السلطة لإنفاذ الأحكام وإيقاع العقوبات والحدود والتعزيرات على الناس، حتى ولو كانت معطلة؛ لأن ما يترتب على تنفيذها ممن ليس أهلاً لها من الفوضى أكبر من تعطيلها، وبذلك تعم الفوضى والاضطراب، ويشيع العبث، وتتحول القيم والأحكام الإسلامية على يد هذه العقول القليلة والأنظار الكليلة إلى صناعة المشكلات، بدل أن تحقق للناس الحل والأمن الاجتماعي.

الخلط في مواصفات الخطاب:

ولا يقل عن ذلك خطورة في التعامل مع الأحكام الشرعية عدم استيعاب مواصفات الخطاب القرآني والخطاب النبوي، والتعامل معه في ضوء الحالات المطلوب التعامل معها.

ذلك أن من المعروف أن للحرب والمعركة والجهاد خطابها، بكل ما يتطلبه من التعبئة النفسية، وشحذ الهمم، والإغراء بالمواجهة، والتحريض عليها، والثواب الكبير لمن يقضي في سبيل ذلك، من مثل قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ (التوبة:١٢٣)، وقوله تعالى: ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ..﴾ (الأنفال:٦٥)،

وقوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال:١٢)، وقوله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ (التوبة:٤١). وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ...﴾ (آل عمران:١٦٩)... إلخ.

أما الخطاب في حالة الدعوة والحوار فمختلف تماماً، له أدواته ومواصفاته، من مثل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل:١٢٥)، ومثل: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت:٤٦)، ومثل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ...﴾ (آل عمران:٦٤) وهكذا.. والذي لا يدرك ذلك يظنه تناقضاً، أو يُعمل فيه النسخ، فتنسخ آية السيف معظم آيات القرآن(!).

كما أن خطاب العقيدة له مواصفاته أيضاً: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ...﴾ (المائدة:٧٣) إلخ.

وخطاب العهد له مواصفاته، من مثل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ (الممتحنة:٣).

والخطاب التربوي له مواصفاته... وهكذا.

فالخلط في مواصفات الخطاب وحالات تنزيله، والعبث بالأحكام، دون تقدير الحالات والاستطاعات والمخاطَبين، يورث المسلمين الكثير

من الفتن والبلاءات، والتناقضات، والأضرار، ويفقدهم الحكمة، ويصدق فيهم قول الشاعر:

ووضع الندا في موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى

لذلك نعتقد أن عمليات التلاوة: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وكيفياتها، وتجويدها؛ وعمليات التزكية والتطهير والتربية والتنشئة السليمه: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بمناهجها، وكيفياتها، وتطوير خطابها، بحسب العمر العقلي والنفسي والمعرفي للإنسان؛ وعمليات التعليم والتخصص واكتساب المعلومة والمعرفة، التي تزكي العقل وتمنح الخبرة والإحاطة بالأمور: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والقدرة على وضع الأمور بمواضعها، وقياسها بمقاييسها، هذه مسؤولية العمل التربوي، ومسؤولية الخطاب التربوي، لأنه هو الذي يؤهل ويحضِّر للتعامل مع الحياة والأحياء، من خلال القيم الإسلامية.

والخطاب التربوي، أو المنهج التربوي، بحسب ظروف الزمان والمكان، هو من اجتهاد وعمل عقل الإنسان المتخصص في التربية، القادر على استلهام القيم الأساسية في الكتاب والسنة، فالقيم من عطاء الوحي، والمناهج والبرامج من عمل العقل، كما أسلفنا.

لذلك بدأ الوحي في الرسالة الخاتمة بكلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ مفتاح الحضارة والتأهيل للنهوض وإخراج الأمة، فكانت الخطوات الأولى للوحي في

التأهيل والتحضير وبناء الإيمان تربوية تعليمية تأهيلية؛ وبعد صناعة الإنسان المطلوب جاءت الأحكام والالتزامات والمهام والتكاليف ثمرة لهذه الجهود وهذا التأهيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ افعلوا كذا وكذا.

مسؤولية الخطاب التربوي:

نعود إلى القول: إن الخطاب التربوي التعليمي هو المسؤول الأول والأخير عن فشلنا وعدم قدرتنا على حسن التعامل مع قيم الكتاب والسنة، التي أخرجت خير أمة أخرجت للناس، فالقرآن هو القرآن كما نزل، والسنة هي كما وردت، والإنسان هو الإنسان، لكن أين الخلل المفقود، الذي يحول دون التفاعل لمعاودة الإخراج للأمة من جديد؟

هذه مسؤولية الخطاب التربوي، الذي لا ينفع معه الضجيج والخطابة، وإنما ينفع له الاختصاص والخبرة والمعرفة المتراكمة، وحسن الملاحظة، والحكمة، والتدريب، والتقويم، والمراجعة، والإفادة من الحكمة حيثما كانت، لأنها ضالة المؤمن التي تحميه من الضلال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢).

وفي نهاية المطاف قد يكون من الأهمية بمكان، ونحن نحاول معاودة إخراج الأمة، أن نؤكد أن الأمة المسلمة دون سائر الأمم والحضارات، السائد منها والبائد، تشكلت من خلال كتاب، من خلال الخطاب

التربوي، وإذا كان نهوض أي أمة مرهون بتوفير ظروف وشروط ميلادها الأول، فإنه لا مخرج لنا إلا بالعودة إلى إعادة صياغة خطابنا التربوي وفق معطيات الكتاب والسنة، وتطورها، حسب المتغيرات الاجتماعية والإنسانية، لعل ذلك يشكل سبيل الخروج.

كما لا بد لنا من تقديم دراسات نقدية للواقع التربوي، الذي تعيشه جامعاتنا، ومؤسساتنا، ومدارسنا، ومعاهدنا التعليمية، بحيث يمتد النقد للأطروحات والرسائل العلمية في مجال العطاء الأكاديمي، والخلل الذي تعاني منه، على مستوى الفلسفة، والمنهج، والإشراف، والأداء، والجدوى، وعدم الخبرة، والتخصص، ذلك أن عدم وضوح الفلسفة التربوية، وغياب المنهج الصارم، والإشراف المتخصص، والموضوع المدروس المجدي، يؤدي إلى الكثير من التعميم، والخبط الأعشى، واختلاط الرؤية، ودخول الشأن التربوي، على خطورته ودقته، من يحسن ومن لا يحسن، حتى تحول الكثير من النشاط التربوي إلى بورصة ألقاب وعناوين لا قيمة لها؛ لأنها لم تصرف شيئاً، ولم تحرك ساكناً، ولم تسهم بارتقاءٍ أو تطور مقدور.

والخطورة، كل الخطورة، عندما يتحول من يتصدرون للحل إلى مشكلات في طريق الأمة، ويتحولون إلى طبقة كهان، يطلبون من الأمة الاعتراف بقدسية أفكارهم، ويشيعون جواً من الإرهاب

الفكري، حتى لا ينكشف عوارها لأنها لا تحسن إلاّ الاستهلاك نصفقت الأمة وتبديدها.

ولا بـــد أن نعـــترف بـــأن التربية، بكل أبعادها ومجالاتها، هي أشبه بالوســـيط الكيميائي، الذي يحدث التفاعل المطلوب، ويعيد صياغة الأمة، ويؤهـــلها لكيفية التعامـــل مع قيمـــها وتوظـــيف إمكانـــها الحضاري؛ وأنهـــا المســـؤول الأول عما صرنا إليه؛ وأن الكثير من الفشل والتخلف، الذي نعاني منه لمشاريعنا وأفكارنا، يتطلب عمليات نقدية شديدة، وأحياناً قاســـية، لعـــلها تحـــرك الرواكد، وتصوب الخطوة، وتبني ثقافة المراجعة والمقارنـــة والمقايســـة والحوار، ذلك أن النقد هو الروح المحركة والمصدر لـــلحركة، وأن الناقد هو الناصح - و«**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»- وأنه الشريك الأساس في عملية النهوض والبناء السليم.

«الخطـــاب التربوي الإسلامي» لا يعني بحال من الأحوال الإسلام، بقيمه المعصومة في الكتاب والسنة، وإنما يعني الاجتهادات البشرية العقلية لوضـــع الـــبرامج والمناهج والخطط، وتقويمها ومراجعتها، في ضوء القيم الإسلامية، وانطلاقاً منها، لذلك فهو اجتهاد بشري، يجري عليه الصواب والخطـــأ.. وكونـــه اجتـــهاداً بشـــرياً لا يعـــني أن يمارســـه من هبّ ودبّ، وإنمـــا يمارســـه المتخصصون والمؤهلون.. وهو دائماً قابل للنقض

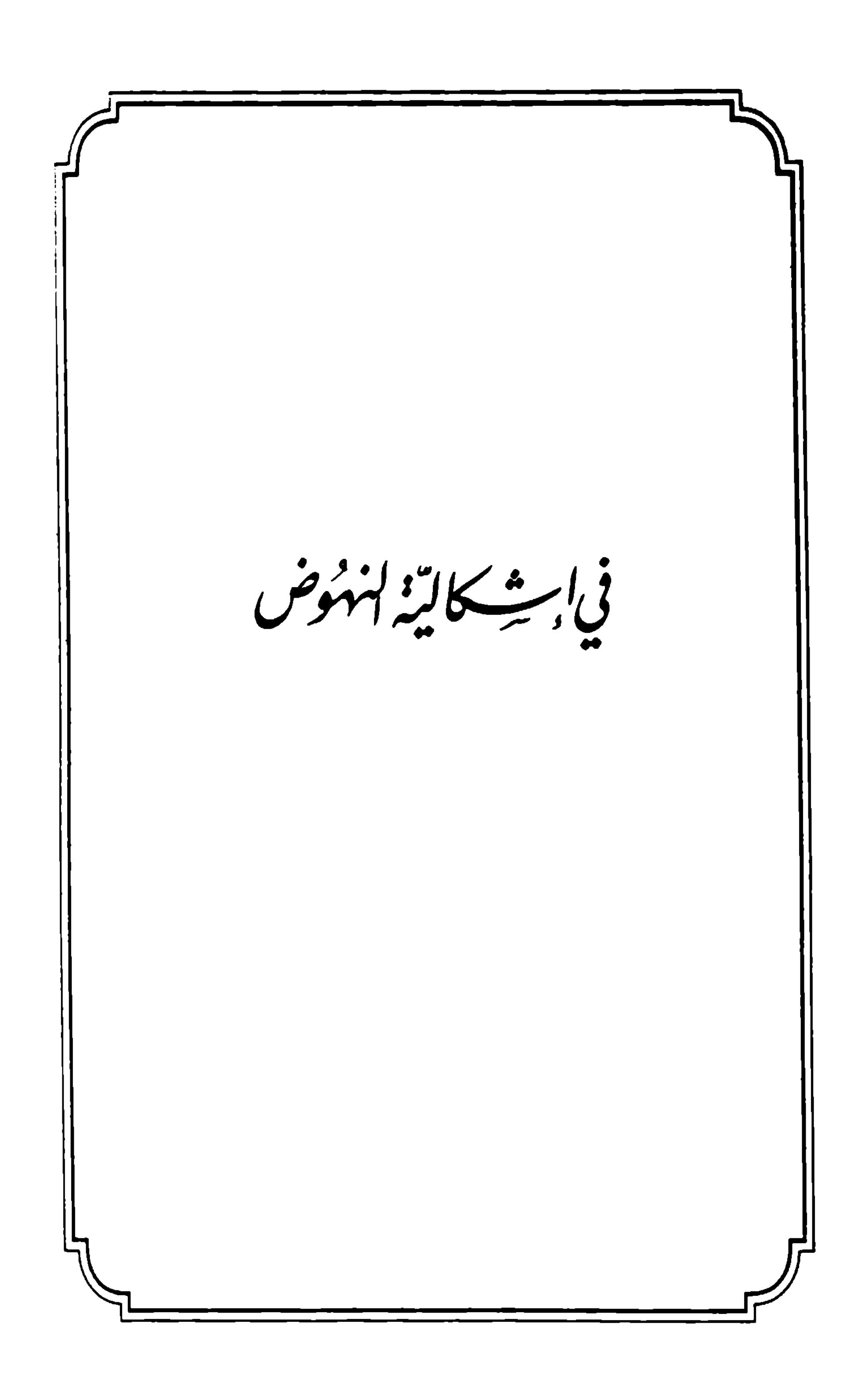
والنقد والإلغاء والتعديل والتطوير، ولعله أكثر المجالات حاجة إلى النقد، ونقـــد الـــنقد؛ لأن المـــنهج الراكد في العالم المتغير مشكلاته وأفكاره وإبداعاتـــه ورؤاه، يكـــرس التخلف، ويسهم بتراجع الأمة وعدم إعداد أبنائها لعصرهم.

إن «الخطـــاب الـــتربوي الإسلامي»، بكلمة مختصرة: منهج صناعة الإنسان - إن صح التعبير- المتغير المتطور والمتنامي، الذي يجب أن يعيش عصره المتغير بسرعة، ويتأهل لفهمه وكيفية التعامل معه.

فكـــيف لا يكـــون المنهج التربوي أو الخطـــاب التربوي مستجيباً لحاجات الأمة، مؤهلاً لها لدخول العصر والتعامل معه، أخذاً وعطاءً؟

لعلنا بذلك نكون قد وضعنا لبنة في هذا الطريق، وفتحنا الأبصار على الكثير من المسؤوليات ومواطن الخلل.

ولله الأمر من قبل ومن بعد، وعند ذلك يفرح المؤمنون بنصر الله.



في إشكالية النهوض

الحمــد لله الــذي جعل التوحيد لله تعالى خلاصاً من ألوهية البشر وتسلط الإنسان على الإنسان، وتحقيقاً للمساواة وكرامة الإنسان، وإيقافاً للكهانات بمختلف أشكالها وممارساتها، ومنطلقاً للنمو والارتقاء؛ وجعل الإنسان المُستخْلَف محور الفعل الحضاري ووسيلته وهدفه؛ وعلمه الأسماء كــلها، لــيكون بهذا التعليم أهلاً للقيام بأعباء الاستخلاف في الأرض وإعمارها وامتلاك القدرة على تسخير الكون، فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (فاطر:٣٩) .. وقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الملك:٢٣)، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ﴾ (هود:٦١)، وقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٣).

وكانــت المعــرفة بشكل عام، والتعليم بشكل خاص، مفتاحاً لهذا الاستخلاف والإعمار والتسخير، ومرافقاً لخطوات الإنسان الأولى على الأرض، لأن العــلم والتعليم دليل العمل والتعامل، وسبيل التنمية والنمو

والارتقـــاء بخصـــائص الإنسان وصفاته وأدواته، على حد سواء، حيث اقتضـــت حكمـــةُ الله جَعْلَ آدمَ وذريته خلفاء الأرض، وأن يكون من متطلـــبات هذا الجَعْل ومؤهلاته التعليم، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٣٠) وأتبعها بقولـــه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:٣١).

وقـــد تجســـد ذلك في الرسول المعلم ﷺ، الذي انتهت إلى رسالته أصـــول الرســـالات السماوية من لدن آدم عليه السلام، واجتمعت له كمـــالات الأنبياء، وكان وريث النبوة وخاتمها، واللبنة الأخيرة في نموها وبـــنائها، حيث الكمال والاكتمال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائد:٣).

كان التعليم منطلقه والغاية من مبتعثه، فقال عليه الصـــلاة والسلام: «...**إِنَّمَـــا بُعِثْـــتُ مُعَلِّمًا**» (أخرجه ابن ماجه) وكانت التزكية وتنمية خصائص وصفات الإنسان سبيله في الارتقاء وإقامة البناء الأخير للنبوة، فقال عليه الصلاة والسلام: « **اقْرَأْ وَارْتَقِ**» (أخرجه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ) ، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا

مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢).

وبتلك النبوة الخاتمة قدم الإسلامُ أنموذجاً كاملاً شاملاً لعمية الاستخلاف، ودليلاً خالداً للمضي في رحلة الحياة، وحقق الانسجام في مكونات الحياة، وقضى على الثنائيات التي أنهكت البشرية ومزقت حياة الإنسان، فكان التوازي في العملية التنموية بين خصائص وصفات الإنسان وبين الارتقاء بوسائله وأدواته وإبداعاته، فلا تعليم بدون تربية وحكمة، ولا تنمية بدون تزكية للنفس؛ لأن الإنسان وسيلة التنمية وهدفها في الوقت نفسه، فالنظر إليه كوسيلة للتنمية والاقتصار على تنمية وسائله على حساب خصائصه وصفاته شقوة وحياة ضنك، والانصراف إلى تنمية خصائصه وصفاته وإهمال وسائله وأدواته عطالة حضارية ووقوع في الثنائية، وفهم مغشوش لرسالة النبوة، إذ لا يمكن أن يُتصور أن تنمو خصائص الإنسان وتتخلف وسائله؛ لأن تنمية الوسائل من لوازم نمو الخصائص والصفات، ومتطلباتها.

لذلك كان لا بد من العمل على إعادة التشكيل الثقافي للأمة، والتمحور حول إشكالية التنمية الثقافية، ودراسة أسبابها الحقيقية، ومظاهرها المتعددة، وتجلياتها في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وحتى التربوية والتعليمية، وتحديد مواطن الخلل في عملية

النهوض، لردم فجوة التخلف، واستعادة الفاعلية، وإخراج الأمة من جديد، وإعادة بناء ولائها المبعثر، لتستأنف دورها الإنساني والعالمي في إلحاق الرحمة بالعالمين، واجتثاث جذور الفتنة وشيوع الظلم وتسلط الإنسان على الإنسان، وإعادة التوازن إلى الحياة والتوازي بين تنمية خصائص الإنسان وصفاته وبين وسائله وأدواته، التي تحولت تنميتها إلى أدوات للبغي والهيمنة والتسلط والاستغلال، وإعادة بناء إنسان الواجب، إنسان الإنتاج والعطاء، وجعله معيار الحضارة والتنمية، بعد أن كاد يغيب أمام إنسان الاستهلاك، معيار حضارة اليوم، الذي لا يبصر إلا حقه، ويقاس تقدمه بحجم استهلاكه، وإعادة الاعتبار لإنسان العلم والخلق والخبرة والفطرة، بعد أن كاد يغيب أمام إنسان اللذة والاكتناز والغريزة، حيث أصبح الأنموذج لإنسان العصر هو رجل الأعمال الناجح، وليس رجل الإبداع والخبرة والعلم والابتكار والعطاء.

ولا يغيب عنا هنا أن بناء الشاكلة الثقافية، أو إعادة التشكيل الثقافي، وبناء المجتمع المعرفي وتوفير البيئة والمناخ العلمي، يعتبر من الصناعات الثقيلة والشاقة، التي تتطلب الكثير من الصبر والتأني والمراجعة والفاعلية والاحتساب، ذلك أن الاشتغال بالتحول الثقافي وتحقيقه كان ولا يزال مهمة أولي العزم من الرسل وأصحاب العزائم من الرجال، الذين يسيرون على قدم النبوة.

* مرتكزات النهوض التنموي:

- الانطلاق من الذات:

وقد لا نكون بحاجة إلى معاودة التأكيد أن التنمية رؤية ثقافية وعمية حضـــارية متراكبة وشاملة، ذات أبعاد متعددة ومتكاملة، وليست ذات بعد واحد، وإن كان الأظهر فيها اليوم هو البعد الاقتصادي والسياسي، إذ لا يمكن أن يُتصور أن يترافق النمو في جانب مع تخلف وتراجع في بقية الجوانب الأخرى، فالقضية قضية رؤية ثقافية شاملة، إذا اعتبرنا أن الثقافة نسيج ذهني يصنع الإنسان ويصبغه، ويتحكم بسلوكه، توجيهاً وتقويماً، وهـــي أيضـــاً فعل حضاري، بكل ما يشتمل عليه مصطلح الحضارة من أنشطة، وهي منهجية واستراتيجية عمل تأخذ في اعتبارها بعدي الزمان والمكـــان، وتستصـــحب قـــيم الأمة ومعادلتها الاجتماعية، وتستوعب حـــركات التغـــيير والتنمـــية والإصلاح والمراجعة، وتتوقف طويلاً عند مقومـــات فترات التألق والإنجاز لتقيس منها وتستصحبها، كما تتوقف بالقدر نفسه عند فترات التراجع والتقهقر والتخلف، لتبحث في الأسباب الـــتي أنشـــأها، وتحـــدد مواطن الخلل والقصور التي حالت دون بلوغ الأهداف المأمولة فتعتبر بها.

ذلـــك أن الارتكـــاز إلى حـــركات التغيير، بكل وجوهها وأدائها، والإفـــادة مـــن تجربـــتها، سواء كانت خطأ في عملية التسديد والسداد

والوقاية الحضـــارية، أم كانت صواباً في عمـــلية التقـــوي والانطـــلاق والابتداء من حيث انتهت، يشـــكل رصـــيداً لا بد منه في أي عمـــلية تنموية جديدة.

وهذا لا يعني بحال الانكفاء على الذات، في عملية التحديث والتنمية، والـــتجاهل لعمليات التحديث والتنمية العالمية، وعدم الإفادة من رؤيتها ومنهجيتها، وإنما التأكيد أن عملية التنمية والنمو لو تأملنا في مصطلحها لا يمـــكن إلا أن ترتكز إلى شـــيء قائم فتنميه ذاتياً، وبذلك لا تتحقق إلا مـــن خـــلال الذات والبناء على الأصول الحضارية ذاتها، وإلا تكون حركةً في الفـــراغ، إذ لا يمكن أن نتصـــور قيام واقع أمة، الذي هو ثمرة أو انتكاسة لامتداد حضارتها، على أصول حضارة أخرى، إضافة إلى أن الواقـــع يشـــهد أن محاولات التحديث من خارج حضارة الأمة وقيمها ومعادلتها الاجتماعية، انتهت إلى نوع من التكديس والتمظهر التنموي، وفوتـــت عـــلى الأمة الكثير من الفرص التي تمكنها من استنبات التنمية الذاتية في ضـــوء إمكاناتها، فـــكانت سبب عطالة بدل أن تكون عامل نمو ونهوض.

إن عمليات التحديث المستوردة كانت أشبه بالسحر، الذي ما لبث أن انقلب على الســـاحر عندما ظهرت الحقيقة وأحرقت خشبة المسرح ولم يبق إلا الممثلون.

- الإفادة من معرفة (الآخر):

وإذا كانـــت التنمية رؤية ثقافية -كما أسلفنا- فلا يمكن أن تتحقق عـــلى مستوى الذات والإفادة من (الآخر) إلا إذا توفرت المعايير والقيم الحقيقـــية الـــتي تتحكم بعمليتي الأخذ والرد.. والذي يفتقد هذه الرؤية الثقافية هو كَلٌّ في الميزان التنموي، عاجز عن الاستنبات، كما هو عاجز عـــن اختيار ما يفيده من (الآخر) فقد يختار ما يساهم بعجزه واستنقاعه الحضاري وما يكرس تخلفه ويعمق فجوة التخلف في مجتمعه.

إن معـــرفة مناهج ومعارف (الآخر) وخططه التنموية والإفادة منها وتجنب عثراتها فرضاً حضارياً، وإسهاماً إنسانياً، وتفاعلاً تنموياً في العطاء والأخذ وبناء المشترك الإنساني.

فعـــلى الـــرغم من أن الإسلام يمثل الرسالة الخاتمة، التي انتهت إليها أصول الرسالات السماوية جميعاً، وكان الموحى إليه يقود المسيرة البشرية عـــلى المستويات التنموية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، مع ذلك طلب إلى المسلمين أصحاب هذه الرسالة السير في الأرض والتعرف على مـــا فيها، والنظر في أحوال أهلها، والتفاعل الحضاري مع (الآخر)؛ لأن التنوع والنظر والتفاكر والمثاقفة سبيلُ تنمية الذات والنهوض الحضاري، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ

﴿يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (العنكبوت:٢٠)، وقال مستنكراً حالة الركود: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ (يوسف:١٠٩)، حتى أنه اعتبر السير في الأرض والتوغل في حضارة (الآخر) سبيلاً للبيان والمعرفة، ووسيلة للاهتداء إلى التعرف على أسباب السقوط والنهوض، كسنن وقوانين تحكم الحياة والأحياء جميعاً، وتحقيقاً للاعتبار، وتجنباً لأسباب السقوط والتراجع والتخلف، وتحققاً بالوقاية الحضارية التي تؤمن المسيرة التنموية، قال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام:١١)، ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٨).

ولا شك عندي أن شيوع التخلف وغياب الرؤية التنموية في عالم المسلمين سببه الأساس أننا اليوم لسنا في مستوى إسلامنا بالنسبة للذات، ولسنا بمستوى عصرنا بالنسبة (للآخر)، وأعتقد أن الأمرين متلازمان إلى حد بعيد.

وعلى الرغم من أن عملية النهوض وردم فجوة التخلف هي عملية جماعية أو مجتمعية إلا أنها تبدأ من عند الفرد في إطار الدائرة التي يشغلها ويتوسع فيها، لتتراكم مجهودات الأفراد وتشكل مجرى كبيراً تنخرط فيه الأمة جميعاً.

* من أسباب الوهن الحضاري:

١- وصاية النخبة الفاشلة:

والحقيقة التي لا لبس فيها أن العملية التنموية هي تفكير وتخطيط ورؤية نخبة، وإنجاز وفعل أمة، وأن الإشكالية الحقيقية تكمن في أزمة النخبة، التي تُنصِّب نفسها في مختلف المواقع و لم تنتج إلا التخلف والتراجع.. ومع ذلك تصر على نخبويتها والوصاية على الأمة.

إن واقع الحال التراجعي، الذي تعاني منه الأمة يعني ببساطة فشل النخبة في إنتاج تنمية، أو في بناء مناخ تنمية تتحرك فيه الأمة.

فالإشكالية في من نصبوا من أنفسهم أوصياء على الأمة، على المستوى السياسي والديني والاجتماعي، فهذا الحال الذي تعاني منه الأمة هو من إنتاجهم، مهما حاولوا تغيير لبوسهم وتغيير عناوين خطبهم ومؤتمراتهم والتفتيش على عناوين جديدة، ذلك أن المضامين هي هي.. وكم من المؤتمرات والندوات تتغير عناوينها ومحاورها ولا يتغير أشخاصها المتحرفون، فلا تخرج عن تكريس حالة التخلف، أو تنمية التخلف، وفي هذه الحالة يشيع فقه المخارج، ويغيب فقه المقاصد، ويتمحور الفقه غالباً حول الحيل الشرعية، ويتسع مبدأ سد الذرائع حتى يعطل النصوص الفاعلة، ويتحول الإنسان من الفعل والإنجاز واستشعار المسؤولية إلى الاكتفاء بالحكم على فعل (الآخر)، والتحول أيضاً من السير أمام المجتمعات واستشراف مستقبلها ووضع الأوعية الشرعية لحركتها من

خــلال الإمكانــات المتاحة والظروف المحيطة والمقاصد المرجوة وتقديم الــنماذج الــرائدة المــثيرة للاقتداء، إلى السير وراءها وإيجاد المسوغات والأحكام على ممارساتها.

والحقيقة أن مخاطر الجرائم الثقافية بحق الأمة قد تكون أشد عليها من جــرائم الحــرب التي تمارس من قبل بعض العسكريين والسياسيين، وأن الكــثير من المجرمين الثقافيين أحق بالمحاكمة الثقافية، وعلى الأخص منهم سدنة التخلف والاستبداد الســياسي وفقهاء ومثقفو الســلطان، الذين لا يخلصون النصح حتى للسلطان، ويقودونه إلى حتفه ودمار الأمة، فهم أشــبه بمشيعي جنازة يرفعونها على رؤوسهم لكنهم ينتهون بها إلى المقابر ويعــودوا لاســتقبال زبــائن جدداً، وليس بأحسن حالاً أولئك الذين يغــادرون المجتمعات بحجج واهية، وينسحبون من المعركة الحضــارية، ولا يدركون سنن التدافع التي هي سبيل النمو والارتقاء.

٢- بروز إنسان الاستهلاك:

ويمكن القول: بأن التخلف والتراجع والتقهقر وغياب خطط التنمية وانطفاء الفاعلية يمثل مرحلة القصعة وحالة الوهن الحضاري، الذي يلحق بــالأمم على مستوى الأفراد والجماعات، ويمثل مناخاً ينعكس على كل أداءٍ وفهم وتعامل، حتى أنه ينعكس على قراءة التاريخ وتفسير النصوص واســتنباط الأحكام الشرعية، كما ينعكس أيضاً على مؤسسات التعليم والمكونات الثقافية والفكرية في الأمة.. فالتخلف، إلى جانب كونه واقعاً،

فهـــو حالة ذهنية، وإصابة فكرية، وقصور فقهي وانطفاء فاعلية. وغياب الفكرة وبروز الغريزة.

ولقـــد حـــذر الرســـول ﷺ الأمة المسلمة من أن تنتهي إلى مرحلة القصعة، ويتسرب إليها الوهن الحضاري مستقبلاً، فقال: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**.. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْـــنُ يَوْمَـــئِذٍ؟ قَالَ: **بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ. وَلَيَـــنْزِعَنَّ اللَّـــهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**.. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: **حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**» (أخرجه أبوداوود).

إنهـــا مرحلة القصعة، حيث تصبح جامعاتنا محلاً لاستهلاك (الآخر) وســبيلاً إلى إنتاجه، وتتحول جميع ممارساتنا لتصبح ممارسات استهلاكية تصب في مصلحة (الآخر).

حتى جهادنا يصبح جهاداً استهلاكياً يستخدم فيه (الآخر) تضحياتنا في تصـــفية حســـاباته، ويدخلـــنا المعارك نيابة عنه، سواء بغفلة منا أو باختراق وتواطؤ لداخلنا، ثم نكون أول الضحايا.

حـــتى عقولنا ومواهبنا وإنتاجنا الثقافي تُستنـــزف، وتُهجَّر، وتهاجر، لتصبح في خدمة مؤسسات (الآخر).

إنهـــا مـــرحـــلة الوهن الحضـــاري وحالة القصعة، التي أخبر عنها الرسول ﷺ.

ولقد استغرب بعض الصحابة هذا التحذير، الذي لا يمكن أن ينتسب أو يُتصور في واقع الصحابة، وسأل عن معنى الوهن الحضاري (التخلف والسقوط) فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ فقال: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**».

فالإشكالية، أو إشكالية التخلف والوهن، هي نوعية وليست كمية: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ**»، ذلك أن من أكبر المؤشرات على السقوط الحضاري أو الوهن الحضاري يتمثل في بروز إنسان الاستهلاك، الذي عبر عنه الرسول ﷺ بـ «**حُبُّ الدُّنْيَا**» ذلك الإنسان الذي يعبّ من المتع عبًّا، ويطلق شهواته وغرائزه ويسدر في غيِّه.. وقد لا نستغرب ذلك في هذا العصر المتخلف، كما استغربه الصحابة رضي الله عنهم، فلقد أصبح ميزان التقدم والنمو يقاس بمدى الاستهلاك وبروز إنسان الاستهلاك، إنسان الحق، الذي لا يرى إلا حقه، دون أن يفكر ولو لحظة بواجبه.. وشيوع هذا الإنسان ينتهي بالأمة إلى مرحلة تفتقد معها التوازن الاجتماعي والتنموي، وهذه الحالة تترافق عادة مع غياب إنسان الإنتاج، إنسان الواجب، إنسان الفكرة، الذي لم يقدم لمستقبله شيئاً يطمئن إليه.

ومـا لم تفكر مؤسساتنا التربوية والثقافية والإعلامية والتعليمية ومساجدنا وأنديتنا في تصويب المعادلة، واستعادة إنسان الواجب، إنسان الفكرة، ومحاصرة إنسان الحق فقط، إنسان الاستهلاك وإطلاق الغريزة

عن عقالها، فلن تكون هناك تنمية حقيقية، مهما تسعت مؤسسات الاستهلاك وكثرت مستورداتها.

٣- النظام التعليمي:

وهذا الوهن الحضاري، أو مناخ التخلف، يصيب الذهنية وينعكس على الفهم والأداء -كما أسلفنا- وتصبح الكثير من المؤسسات المنوط بها عملية النهوض عبئاً على النهوض، وعقبة في وجه العملية التنموية. ولا أظن أن هناك خلافاً عند معظم المفكرين والباحثين والمنظرين في أن إشكالية التنمية في العالم الإسلامي والعالم تكمن في نظام التعليم ومنهجيته وأدائه، وأن التربية هي التنمية في جماع القول، وأن عامل النهوض والتنمية لا بد أن يبدأ بالعلم والتعليم، وأن نهضتنا وثقافتنا ورسالتنا وحضارتنا انطلقت من ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ولم تبدأ بأية تكليف آخر، حتى الصلاة عماد الدين، والجهاد ذروة سنامه، فلا عبادة ولا إنجاز ولا مجاهدة ولا تقدم ولا تنمية بدون معرفة، لذلك قال الرسول ﷺ: «اقْرَأْ وَارْتَقِ» فسبيل النمو والارتقاء هو المعرفة.

وبالإمكان القول: بأن التعليم والتربية وكل المؤسسات التي تساعد العملية التعليمية والمعرفية، من الإعلام إلى مراكز البحوث والدراسات إلى معامل ومصادر المعرفة، هي المسؤول الأول عن التخلف، وسوف لا نأتي بجديد، أو نقرر حقيقة غائبة، إذا توقفنا عند هذه الحدود.

وإذا كـــان التعلـــيم والمؤسسات المساندة له هو المسؤول الأول عن الـــتخلف والتراجع والسقوط الحضاري، وإذا كان واقع التعليم وانحسار الأمـــية الأبجدية في تنامٍ، يبقى السؤال الكبير المطروح: لكن أين الخلل في المســـألة التعليمـــية؟ وأين الإشكالية؟ إذ لا مندوحة لنا إذن من المراجعة وإعـــادة الـــنظر في التعليم؛ لأنه سبيل الخروج من نفق التخلف ووسيلة تحقـــيق التنمـــية؛ ولأن الإنسان، محل التعليم، هـــو وســـيلة التنمـــية وهدفهـــا في الوقـــت نفسه، وما لم نعد للإنسان، ونتعهد تنقية أفكاره، ونحاول تطوير وتنمية خصائصه وصفاته، فلن نقتحم العقبة، مهما حاولنا تطوير أشياءه واستيرادها وتكديسها.

فـــنحن كنا أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب، كما كان الحال عند مجيء النـــبوة، فلما أحسنا التعليم والتعلم وأحسنا القراءة الهادفة كنا خير أمة أخرجت للناس في مجال البناء والعطاء والشهود الحضاري.. ذلك عندما عرفـــنا كيف نقرأ، ولماذا نقرأ، وكنا نقرأ لنتعلم لا نتعلم لنقرأ، كما هو الحال اليوم، وكان شعار القراءة: القراءة باسم الله الأكرم، بكل ما تحمل تلـــك القـــراءة باســـم الله من دلالات وأهداف وتوظيف العلم للتنمية والارتقـــاء، وكان التخوف الدائم من أن تتحول القراءة عن أهدافها في الخـــير والعدل والسلم والرحمة إلى نوع من البغي الذي تسانده المعرفة، ذلـــك أن الكـــثير مـــن الإنتاج العلمي اليوم إنما يتمركز في تنمية أشياء الإنسان على حساب الإنسان، بل الإمكان القول: إنه يتمركز في معظمه على التكنولوجيا التي تمكّن من الهيمنة والغلبة والسيطرة والتسلط.

فالعلم إن لم يُضبط بمرجعية قيمية وأهداف إنسانية يتحول إلى ظلم وبغي وتفرق وتخلف وكهانات، حتى في المجال الديني. قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكّٖ مِّنْهُ مُرِيبٖ﴾ (الشورى:١٤).. لذلك كان من دعاء الرسول ﷺ، ومن يسير على قدم النبوة من بعده: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ**» (أخرجه مسلم).

فالمشكلة التنموية إذن تكمن في مناهج التعليم، وطرائق التعليم، وسياسة التعليم، ومؤسسات التعليم، ونوعية التعليم، وأهداف التعليم، فملف التعليم وديمومة النظر فيه وتطوير وسائله وإعادة النظر في سياساته وأهدافه، من أهم متطلبات التنمية، أما إذا أصبح التعليم يعاني من غربة الزمان والمكان، ويعيش خلف المجتمع بعيداً عنه وعن مشكلاته، ويحاصر نفسه وحركته ضمن معطيات عقول أنتجت لعصر آخر ومشكلات أخرى مهما كانت متألقة ومبدعة، فلن يحقق نقلة تنموية نوعية.. ومهما تعددت واتسعت الجامعات فلا تخرج عن أن تكون تكراراً للنسخة الواحدة.. والشيء المحزن حقاً أن التخلف في عالمنا اليوم قد يتناسب عكسياً مع زيادة عدد الجامعات وانحسار الأمية!

فإذا ألقينا نظرة على عدد الجامعات، وعدد الرسائل العلمية، وعدد المجلات المحكّمة، وعدد كليات التربية، وعدد كليات المعلمين، وأعداد

الهيـــئة التدريسية، وكمية الإنفاق الحكومي على تواضعها، وتزايد عدد الطلـــبة، والـــترقي في الوسائل المعينة، وزيادة بيوت الخبرة، والترقي في وســـائل الطباعة للكتاب المدرسي والإعلام التربوي والأجهزة المساندة للعملـــية التعليمـــية، ومن ثم حاولنا التعرف إلى النواتج والواقع المتخلف البئيس، فقد نصاب بالذهول حقاً، وكأن تلك المواطن التي يفترض فيها أن تطلق الطاقات، وتدرب على المهارات، وتهيء مناخ الإبداع، وتبصِّر بالمشـــكلات، وتعـــالج قضايا الأمة، تحولت لتكون هي مشكلة الأمة.. وبدل أن تساهم بدفع عجلة التنمية واستبانة سبلها تتحول إلى مؤسسات لـــتكريس التخلف وطرد الخبرات وقتل الإبداع وتحنيط التطلعات، وقد يكون إنجازها الوحيد إيجاد طبقة من أصحاب الألقاب.

إن علـــل التعليم والتعلم كثيرة، ومتوضعة، ومساحتها أكبر من أن تســـتقرأ اســـتقراءً كاملاً في هذه العجالة، ولعلنا نقول: إن التعليم الذي يُفترض فيه أن يعالج مشكلات الأمة وإشكاليات الحياة وتطورها ويسهم في تنميـــتها، انتهـــت إليه مشكلة الأمة بكل تعقيداتها وتداعياتها، لذلك فالعـــبء ثقيل، ولا يحتاج الإنسان إلى جهد كبير ولا إلى تأمل في العمق البعـــيد حتى يبصر المشكلة التعليمية، وحسبنا أن ننظر إلى الإنتاج العلمي والتعلـــيمي في مجـــال تنمية الموارد البشرية وتوفير الاختصاصات المعرفية المطلوبـــة لـــنرى أن التعليم في تراجع، فكلما تقدمت وسائله واتسعت مدارسه ومعاهده ازداد تخلف الأمة واشتدت حاجتها إلى (الآخر)!

ولو قمنا بعملية تعـــداد نســـبي لمن يحمـــلون ألقاباً عـلمية أكاديمية. أو ألقيـــنا نظرة على حجم الرســـائل الجامعـــية للدراسات العليا في بلد واحد من بلاد العالم الإسلامي الذي يعج بالمال والإمكانات والجامعات. ومـــا انتهى إليه حـــالها من الشـــلل وعدم الحراك، لأصبنا بالذهول (!) ولـــو حاولنا قراءة عناوين الرسائل وموضوعاتها لما احتجنا كثيراً لإدراك أسباب التخلف الحقيقية، وكيف أن جذورها تكمن في المسألة التعليمية وتغذيها، لتصبح المسألة التعليمية تخلفاً مستداماً.

لقـــد حققت الألقاب والمناصب الأكاديمية المال والمنصب والسمعة لأصحابها، لكنها لم تحقق لأمتها إلا القليل، ولقد منحت الرسائل الجامعية الألقاب لأصحابها، لكنها في معظمها لم تشكل حراكاً ثقافياً، أو تنموياً. فهي أشبه، بحجمها وقيمتها، العملـــة الزائفة؛ هي أحمالٌ وأحجام لكنها لا تصـــرف شـــيئاً، وكـــان يكفي عشر معشارها، لو أُدركت أسباب القصـــور والتخلف وعُرفت مواطن الخلل والتقصير في الجوانب المتعددة. لتحقيق نقله نوعية للمجتمع والأمة.

نعـــاود القـــول: بـــأن الإشكالية ليست في عدد الجامعات، ولا عدد الرســـائل الجامعية، ولا قلة الخريجين، ولا عدد المجلات المحكّمة، ولا عدد كليات التربية وإعداد المعلمين، كما أنها ليست في كمية الإنفاق الحكومي، وإن كان قليلاً بالنسبة لجوانب البذخ والهدر فيما لا ينفع وقد يضر ويعود على الأمة بالخبال، وإنما الإشكالية في حقيقتها يُمكن أن تُوصف بأنها أزمة ذاتية، أو علة ذاتية، في التعليم ذاته.. هي في الذهنية والمنهجية والنوعية.

صحيح بأن الكثير من العلل الذاتية يجيء ثمرة لإفرازات مجتمعية؛ لأن التعلــيم لــيس منفصلاً عن حياة الأمة وواقعها ومؤسساتها، ابتداءً من الأســرة وانتهاءً بالدولة، يحمل أثقالها وأوزارها.. لكن الصحيح أيضاً أن التعليم هو العلاج وسبيل الخروج الوحيد، فإذا حمل التعليم أدواء المجتمع وإصــاباته وعجــز عن تجاوزها أصبحت الأمة كالغاصّ بالماء، ذلك أن إصــابات المجتمع في سائر المجالات تمثل حالة الغاص بالطعام الذي يدفعه ويعالجــه بالمــاء، أما إصابات التعليم وعجزه عن العلاج والتنمية فغصته بالماء نفسه، تلك الغصة التي قد تقضي على حياة صاحبها.

والــتفكير المطلوب والملح: كيف يمكن أن تنفلت المسألة التعليمية، وتنفك عن مناخ التخلف، وترتقي إلى مستوى العلاج؟ وهذا لا يمكن أن يتحقق ما لم نبصر العلل الذاتية للتعليم، ونحاول تخليص التعليم منها، ومن ثم نحصنه ما أمكن ضد تأثير تخلف المجتمع ليتحرك لعلاج مشكلة التخلف حركة الطبيب المحصن بين أصحاب الأمراض السارية.

- من العلل الذاتية للتعليم:

ولعلــنا نأتي على ذكر بعض هذه العلل، علها تشكل بعض النوافذ وتبصِّر بالأسباب المنتجة لحالات التخلف.

- وقد يكون في مقدمة هذه الإصابات غياب مراكز البحث العلمي ومراكز الدراسات والمخابر، ومراكز المعلومات، ذلك أن هذه المؤسسات

هي التي تنتج المعرفة، وتختبرها، وتجربها، وتتيقن من صدقها، ومن ثم تأتي المدارس والمعاهد والجامعات لتكون مراكز لنشرها وتسويقها وتعليمها.. إن التنمـــية الحقيقـــية تـــبدأ من مراكز البحث العلمي، مراكز الكشف والملاحظـــة والإبداع والابتكار وإطلاق المواهب والمنافسة باتجاه كشف الحقيقة، التي تطرح الإشكاليات التنموية والمجتمعية والتعليمية، وتستخدم في إدراكهـــا والإحاطـــه بعلمها التخصصات والشعب المعرفية المطلوبة كلها، وتخرج بحلول تتحول إلى الجامعات وتنتهي إلى المجتمعات، لترتقي بأدائها، وتبصرها طريقها.

ولا أعـــتقد أننا أدركنا بعد وظيفة مراكز البحوث.. فعملية إنشائها عـــندنا - وهي هياكل للتوظيف وتسجية الأوقات- لا تخرج عن كونها تقليداً (للآخر)، فهي أقرب للمتاحف والمخازن والمجالس والمضافات منها لمراكـــز البحث العلمي، مع التسليم بأن للمتاحف وظيفة علمية وتعليمية في أنظمة التعليم المتقدمة والتنمية الاجتماعية.

- إن التعلـــيم عندنا يتمحور حول التلقين والحفظ وشحذ الذاكرة بعـــيداً عـــن الـــتفكر والمقارنة والتمييز وتنمية التفكير، هو تعليم يخرِّج بـــبغاوات، عقولهم في آذانهم، يساهم بامتداد حياتهم الطفلية، أو يشكل مـــداً لطفولـــتهم؛ لأن الذاكـــرة والحفظ أولى وظائف العقل، والتفكير والمقايسة والمقارنة أعلى مراتب التفكير، فالإصرار على الحفظ والذاكرة

يعني التوقف عند أولى مراتب العقل، وعائقاً يساهم بطرد أصحاب العقل والتفكير، وبذلك ينقلب التعليم من حل إلى مشكلة.

- كما أن واقع التعليم عندنا يقوم على التكديس والحشو والتقليد والدوران في عقل السابق، بعيداً عن تنمية روح الإبداع والكشف والملاحظة والتجربة والتبصر واكتشاف الخطأ، فكيف والحالة هذه يمكن للتعليم أن يسهم بعملية التنمية، إن لم نقل ينمي التخلف؟

- وكيان التعليم عندنا في كثير من أحواله يقوم على النقل والتكديس والاستيراد والارتهان والتبعية والتقليد، بعيداً عن بناء القدرة على الاستنبات وبناء الشخصية الاستقلالية.

- والتعليم عندما ما يزال يتجاهل أهمية التخصص وتقسيم العمل وتنمية التخصص واحترام التخصص وتقدير الخبرة.. ما يزال صاحب الحماس والصوت الأعلى والشخصية المنبرية هو الشخص المميز والمعلم المميز في المدرسة والجامعة والمجتمع.. والطالب الأخرس الأطرش الأحفظ الساكن القابل بكل ما يلقى إليه دون نقاش أو حوار أو استفهام هو الطالب المميز، فكيف يسهم هذا الطالب وذلك المدرس في عملية التنمية والارتقاء؟

بل لعنا نقول، بكل أسف: إن واقعنا يستهين بالخبرة والتخصص، فكم من المتخصصين في عالمنا الإسلامي، وفي نطاق العاملين للإسلام، في الطب والهندسة والكيمياء والعلوم، بكل أنواعها، غادروا تخصصاتهم ليصبحوا خطباء ووعاظ، دون أن يؤهلوا لذلك، وهم بذلك يقدمون

النماذج الرديئة للاستهانة بالمعرفة والتخصص العلمي أمام الجيل، ويعلنون عن عجزهم في السياق العلمي وجعل المعرفة في خدمة أهداف أمتهم، ليتحولوا إلى إيقاعات من العويل والبكاء على الأمة التي شيعوها إلى المقابر.

- والسياسات التعليمية والمناهج هي أقرب للشعارات والرغبات، بعيداً عن الخطط والبرامج، التي تستجيب لحاجات الأمة وتبصِّر بكيفية التعامل مع مشكلاتها وفهم معادلاتها الاجتماعية والتطورات الإقليمية والعالمية من حولنا.

حتى مناهج العلوم الشرعية، التي تعتبر أم العلوم وحاديها بشكل عام، والمفترض فيها بعد هذا الرصيد والتجارب والتاريخ والمخزون التراثي، فإنها تقوم في معظمها على التلقين والحفظ بعيداً عن تنمية الشخصية وبناء روح المبادرة والاستقلال والاجتهاد.. إنها تتمحور، إلى حدٍ بعيد، حول حفظ النص والحديث عن عظمته ودوره في نقل المجتمعات وتنميتها والارتقاء بها، بعيداً عن الحديث عن فهم الاجتهاد في تنزيله وكيفية تطبيق النص وإعماله في واقع الحياة، وبذلك ينتهي الطالب إلى نوع من الفصام الخطير، الذي يؤدي للعطالة إن لم يؤد إلى الارتكاس، بالنسبة للعاجز عن التمييز بين الصورة والحقيقة، ويرتسم أمامه السؤال الكبير: أين فعل هذه النصوص في واقع الأمة البائس المتخلف؟

حتى دراسة السيرة النبوية، وعظمة فعل القيم الإسلامية في حياة الناس، لا يخرج عن ذلك، وكأن هذه العلوم أصبحت للتبرك والخروج من العهدة الشرعية.

- وفي الوقت الذي يقوم فيه التعليم في الدول المتقدمة على التدريب وتنمية المهارات، ويرتقي بالعلوم الإنسانية والاجتماعية النظرية في أصلها إلى المجالات التطبيقية، حيث لم يعد يقتصر التدريب والتطبيق وتنمية المهارات على العلوم التجريبية، نرى في واقعنا تحول العلوم التجريبية إلى معارف نظرية وتجريدات ذهنية.

- وقد يتحول التعليم بشكل مباشر أو غير مباشر إلى طرد الخبرات وتهجير الكفاءات المتميزة عندما يضيق بها ولا يتيح لها مناخ النمو والامتداد، ولا يوفر لها مراكز البحوث والدراسات، ولا يمنحها قيمتها الاجتماعية.. وبدل أن تكون الخبرات والمعارف والتخصصات والبحوث سبيلاً للخروج من نفق التخلف وإحداث التنمية تحاول هي الهجرة والخروج من مجتمعات التخلف.. وعندما لا يحترم الاختصاص، ولا تقدر المعرفة، ولا يُعرف للخبراء حقهم، فمن الطبيعي أن يهجروا منابر العلم والمعرفة، ويتأسفوا على سنوات عمرهم، ويتحولوا إلى شخصيات منبرية تخاطب الجماهير والعامة، وبذلك يصيرون أدواتاً لتكريس التخلف والمساهمة برحلة التيه والضياع وندب الحظ على الإنفاق على مؤسسات التعليم العقيم التي لا تنجب.

وطالمـــا أن التعليم يفتقد شحذ الذهن وإثارة الفاعلية وتنمية المهارات وبناء الشخصية الاستقلالية وتأسيس قيم الحرية واستشعار المسؤولية وتأصيل قـــيم الشورى والحوار والمثاقفة والتدريب على النظر والاجتهاد والإبداع، فسوف يبقى خارج الحياة، ويتحول من حلٍ إلى مشكلة، ويصبح عبئاً على الأمة، يستنـــزف مواردها المالية، ويعطل طاقاتها البشرية.

وما لم ندرك أن الاستبداد بكل أشكاله هو ثمرة التخلف، أو هو التخلف حقيقة، وعدو التنمية بكل أبعادها، فسوف نبقى نراوح في أماكننا، ونقطع أحذيتنا، ونتوهم بأننا نتقدم ونقطع المسافات صوب أهدافنا.

٤- شيوع عقلية الاستبداد:

وفي تقديـــري أن علـــة العلل، في موضوع فشل مشروعات التنمية واتســـاع فجوة التخـــلف وعجز مؤسسات التعليم عن تقديـــم الحل، هي عقلية الاســـتبداد بشكل عام، والاستبداد السياسي بشكل خاص.. ولا أقصد بذلك الاستبداد السياسي الذي تمارسه بعض السلطات الحاكمة والمتســـلطة في العالم الإسلامي والعالم، وحتى المعارضة، وإنما سيطرة مناخ الاستبداد السياسي والاجتماعي والتربوي والتعليمي والإداري والأسري، ذلك أن الإشكـــالية في ذهنية الاستـــبداد، وإن كان الاستبداد السياسي أكثر ظهوراً، وأعظـــم تأثيراً، وأشمل مســـاحة، وأشـــد أثراً على سائر الأنشطة الحياتية.

ونستطيع القول: إن شيوع الاستبداد، وانعدام الحرية، وغياب تكافؤ الفرص، وتقديم أهل الثقة والولاء والحماس على أهل الخبرة والاختصاص، هي التجسيد العملي لذهنية التخلف، والتمظهر الواضح لمقوماته، فالتخلف من لوازمه الاستبداد، والاستبداد من لوازم التخلف؛ ولا يستبد عملياً إلا متخلف يعاني من عقدة النقص، ولا يختار مؤسسات الاستبداد وينتهي إليها إلاّ المتخلف، يستبد ليستر عورته؛ فلا يتخلف إلا مستبد، لعجزه عن إدراك الأمور والإحاطة بها، وحقده على المتميزين ورغبة في الثأر منهم.

والإنسان السوي، المفكر المتبصر العالم المثقف، لا يستطيع الاستبداد ولا يحسنه.. والمستبد يحقد بطبيعة تشكيله على كل متعلم ومتخصص ومفكر ومثقف وعالم وفهيم، وقد تصل به الأمور إلى التصور بأن العلم والمعرفة والتخصص أعداء وجوده واستمراره وقيادته.. ولعل الكثير من الاستبداد يورثه الحقد على الآخرين، ومحاولة التعويض بالسلطة والمال لتغطية مركب النقص الذي يعاني منه المستبد.

وجماع القول: بأن الاستبداد أعلى أنواع التخلف، وهو نقيض التنمية والنهوض.

فالمستبد هو المتخلف في كل شيء إلا في تنمية وتوفير الأدوات والأساليب والفنون والتكنولوجيا المتقدمة، التي تمكّن له من الاستبداد والتجسس على خصومه.. إنه متقدم في تنمية وسائل التعذيب

والهيمـــنة والتجسس والتمكين للاستبداد؛ ويأتي في ذلك في صيغة م
الدول المتقدمة.

لذلـــك، وفي هـــذا المــناخ الرهيب الرعيب، سوف يتحول تعليم
ومؤسساته إلى مواقع خلفية، تنعدم فيها الحرية، وتقتل منها روح المبادرة
والإبـــداع والتدريـــب وتشكيل المهارات، ويسودها التحميد والتمجيد
والــتظاهر لتأكـــيد الـــولاء.. وقد لا نستغرب في هذا المناخ أن تتحول
المـــدارس والجامعات إلى أبواق للسلطان، تمارس رجع الصدى لعبقريته.
وتصـــبح أقـــرب لممارســـة الوقـــيعة وإفساد الضمائر والتقاط العجزة
والفاشـــلين، واســـتغلال أحقـــادهم وعقد فشلهم وتعويضهم بإغرائهم
بالانخراط في مؤسسات الاستبداد للتسلط على الناس.

ولعـــل مـــن الأمور الطريفة هنا أن نذكر أن بعض زعماء الاستبداد
السياســـي زار إحـــدى الجامعات، وجُمع له الطلبة ليمارسوا الهتافات
لعبقريته وإنجازاته، وليصفقوا لزعامته، فما كان منه إلا أن أعلن عن أعظم
الإنجـــازات الجامعـــية، وهـــي تنجـــيح الراسبين للعام الذي كانت فيه
الزيارة(!) فكيف لمثل هذا التعليم أن يساهم بالتنمية، وكيف لمثل هؤلاء
المتعلمين أن يقودوا عملية التنمية؟

ولـــيس ذلـــك فقط، وإنـــما الإقدام على اقتحام التقاليد الجامعية
وكسر الموازين والمعايير العلمية، وخرق شروط القبول وتجاوز معدلاته،
وإدخـــال مجموعات من الموالـــين، تحت مسوغات محزنة، وذلك بإضافة

درجـــات إلى مجامـــيعهم بحجة انشغالهم بالنضال الوطني؛ هذا عدا عن المداخـــلات والتهديدات بضرورة نجاح هؤلاء الأبطال القوميين! ليقوموا بخدمة بلدهم وتنميتها.

وقد لا تكون هذه الممارسات مستهجنة في مناخ الاستبداد والتمكين له.. وإذا أجرينا مسحاً سريعاً واستقراءً تاريخياً، نجد أن معظم المستبدين كـــانوا من المتخلفـــين والفاشـــلين، علمياً ودراســـياً، والحاقدين على كل ناجح ومتميز.

نعود إلى القول: إن جرثومة التخلف هي في الاستبداد، بكل أشكاله، ولا أدل عـــلى ذلـــك مـــن أن الكثير من الطلبة الذي يفلتون من مناخ الاســـتبداد ويذهبون لمتابعة دراستهم في مناخ الحرية ومؤسساته العلمية يكونـــون في مقدمة الطلاب، تفوقاً وإبداعاً وتميزاً.. فالمشكلة ليست في الكفاءات وإنما في مناخ إعاقتها ووسائل قتلها.

ونعـــاود التأكـــيد أن البناء التنموي الذي تتطلع الأمة إليه لابد أن يرتكز إلى المعرفة والعلم، وأن ينفك من واقع التخلف، وأن يتحول بالأمة من عملية الإحساس بإشكالية التخلف إلى محاولة إدراك أبعادها، ودراسة الأســـباب المنشـــئة لها، وتحديد الموقع المسؤول عن استمرارها، والدعوة للـــنظر في كيفـــية التعامل معها، ووضع البرامج والخطط لردم فجـــوة الـــتخلف ومعالجتها، والتأكـــيد أن التعليم هو سبيل الخروج ولا سبيل

ســـواه، وأن عجز التعليم عن العطـــاء إنما هو [illegible]

فلا مناص من النظر فيها ومعالجتها.

ذلك أن معظم المفكرين والباحثين والمنظرين يرون أن إشكالية التنمية في العالم الإسلامي والعالم تكمن في نظام التعليم وآليات التربية والتنشئة. فالمسألة تكاد تكون محسومة، لكن المشكلة - فيما نرى- أن واقع التعليم وآلـــياته وسياســـاته هو ثمرة وإفراز لذهنية الاستبداد، الذي يشكل قمة التخلف وأساسه، لكن هذا لا يمنع من أن نقول:

إن فســـاد العملـــية التعليمية هو الذي أورث ذهنية الاستبداد، فهو مقدمة ونتيجة في الوقت نفسه.. ويبقى التعليم والتربية هو التنمية.

ومهمـــا يكـــن من أمر، فإن المؤسسات المعرفية عامة، والسياسات التعليمـــية الهادئـــة المبصرة، قادرة على عزل مواقع الاستبداد وأثرها عن ضـــمير الأمة.. وفي تاريخنا الممتد الكثير من فترات التخلف، التي كانت تمثل تحدياً واســـتفزازاً، استطاعت مؤسســـات التربية والتعليم أن تحوله إلى أداة لإيقـــاظ الأمـــة وشحـــذ فاعليتها، وجمع طاقاتها، ودفعها إلى التجاوز والنهوض.

لقـــد كـــان لمؤسســـات التعليم تاريخياً الدور الأساس في عمليات النهوض.

والله المستعان.

فهرس الموضوعات